

بــازل

نجلاء محمد عفيفي



اسم الكتاب: بازل

التأليف: نجلاء محمد عفيفي

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 160 صفحة

عدد الملازم: 10 ملازم

مقاس الكتاب: 14 x 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2319 / 2017

الترقيم الدولي: 6 - 604 - 278 - 977 - 978

التوزيع والنشر

دار البشير

للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com

darelbasheer@hotmail.com

www.darelbasheer.com

01012355714 - 01152806533

١٤٣٩هـ

٢٠١٧م

إهـــداء

إلى روح أبي وأمي- رحمهما الله- اللّذين علَّماني قيمة الكلمة، وأهميتها.

إلى أخي أشرف، الحنون صاحب القلب الشفيف، والفكر الواعي المستنير .

إلى أختي عفاف وهدى اللّذين غمراني بدفء حنانهما.

إلى زهرتنا نورا..

أهدي إليكم هذا العمل.

والشكر موصول إلى كلٍّ من:

د. أحمد السعيد مراد د. أيمن العتوم

أ/ أسامة الوحش أ/ جهاد أبو زينه

إ/ إسراء عبد العزيز

جزاهم الله عني خيرًا

▪▪تنويه▪▪

أشعار الرواية مهداة من

الشاعر الكبير/ يوسف أبو القاسم الشريف

لوحة الغلاف مهداة من

الفنانة/ لطيفة برجوس

خطوط الغلاف مهداة من

الدكتور/ شاكر بدران

-١-

سمير

- صحبتك السلامة يا حاج، تقبَّل الله منك إن شاء الله.

قالتها صفية، وهي تغلق الباب خلف زوجها فتحي، والتفتت تحثُّ بناتها على سرعة ترتيب المنزل، وإنجازه، قائلة:

- هيَا يا رقية، عليكِ تنظيف السجاد، وأنتِ يا زينب استكملي وضع الملابس على المنشفَة بالشرفة، وبعدها اذهبي مع فاطمة لتحضير السمك، وغسل خضروات السَّلطة، ولا تنسي غسلَ الجرجير يا بُنيتي.

- لقد انتهيت يا أمي من تحضير السمك وغسل خضروات السلطة، وها هي. أحضرتُها لكِ لننعم بأطعم سَلطة من يدك يا حبيبة القلب.

قالتها فاطمة وهي خارجها من المطبخ متجهةً إلى طاولة الطعام القابعة أمام المطبخ. قامت الأم من مجلسها متجهةً إلى طاولة الطعام، وأمسكت بيدها الكرسي لتجلس عليه، وهي تقول:

- بوركتِ يا فاطمة، أسأل الله أن يرزقك الزوجَ الصالحَ قريبًا.

وبعد أنَ وضعت فاطمة ما بيدها من صحون تحتوي على خضروات السَّلطة، طبعت قُبلة على جبين أمها، ثم قالت:

- لا، ألم ننتهِ يا أمي من هذا الموضوع؟، لن أتزوج وأترككم أبدًا.

وضعتْ أصابع يدها على فم فاطمة، وهي تقول:

- لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام أبدًا؛ فصديقاتك ما بين مخطوبة ومتزوجة، ومنهنَّ من أصبحت أُمًّا، لن أوافقك بعد ذلك على رفض الخُطَّاب، ها هي زينب يتبقَّى لها القليل من هذه السنة وتتخرج من الجامعة، فليس لك حُجة بعد الآن، أعلم أن أصدقاءكِ كُنَّ يأتينَ

لكِ بالكثير من الخُطَّاب وأنتِ ترفضين وتصرِّين على موقفك، لكنني سوف أتحدث مع ماجدة، هي التي ستعرف كيف تؤثر عليكِ، وسوف أطلب منها إعلامي بأي عريس يأتي لكِ من خلالها، طالما أنك لا تخبرينني.

احتضنتها وقبَّلتها من رأسها ويدها، وهي تقول:

– لا يا ماما، سأقول لها أنا، لا تشغلي نفسكِ.

وتركتها، وهي تتجه للمطبخ:

– ماذا الذي تفعلينه هناك؟

– سوف أقوم بتحضير أرز السمك.

– لا. تعالي هنا واتركي ذلك لرقية، أريدكِ هنا بجواري.

– ماذا بكِ يا أمي؟

* * *

نظر إلى المنبه الموضوع على «الكمودينو» اللاصق بجوار السرير الذي لم يتركه إلا عندما سمع آيات القرآن الكريم، والتي تُتلى من خلال إذاعة القرآن الكريم، والتي يذيعها مسجد الحي، وهنا فرك بظهر أصابع كلتا يديه عينيه، وهو يتثاءب كزئير الأسد، ثم مسح ما بقي من آثار النوم على وجهه، ونفض الفراش، وانتصب واقفًا وقام بأداء بعض الحركات الرياضية محاولةً منه لنفض الكسل اللاصق على فرائصه وإنعاشها، واستكمل طقوسه اليومية كل صباح حتى يتهيأ للنزول.

* * *

– اجلسي حبيبتي، أريد منك أن تشتري ملابس لكِ؛ أنتِ لم تشترِ منذ فترة.

– يا ماما، قلت لكِ مرارًا وتكرارًا إنني لدي ما يكفيني، ولا أخرج إلا نادرًا.

– لا يا فطومة، عندما يعود أبوكِ من صلاة الجمعة سوف أخبره بذلك لتبتاعي ما يروق لكِ من مستلزمات.

– وأنا أيضًا يا أمي أريد شراء حقيبة جديدة.

قالتها رقية، وهي تحمل في يدها الملابس؛ لتقوم بوضعها على المنشفة في شرفة حجرة الصالون، ضحكت الاثنتان، ووجهت الأم كلامها لزينب:

– وأنتِ أيضًا يا زينب، ألا تريدين شيئًا مثل من استرقت السمع هذه.

– لا يا أمي، أريد فقط شراء برامج للحاسوب.

– كفاكِ، يا ليتني لم أسألكِ.

* * *

أغلق باب شقته بإحكام، وهرول مسرعًا على درجات سُلم بنايته التي يستأجر بها شقة صغيرة، قاصدًا مسجد الحي حتى يلحق بصلاة الجمعة، ولم يجد مكانًا بالمسجد؛ فافترش أرض الساحة أمام المسجد– يفترشِها المتأخرون عن الصلاة– ولم يجد موضعَ قدمٍ؛ فدعاه أحدهم ليصليَ بجواره فصلَّى بجانبه.

* * *

– لقد انتهت الخُطبة، هيا يا بنات من لم تُصلِّ فلتقم الآن إلى الصلاة، وساعدن فاطمة في تحضير الغداء قبل أن يحضر أبوكنَّ.

قالتها صفية، وهي في الشرفة مع بناتها.

* * *

تجمَّع الرجال ليحيي بعضهم البعض بالساحة الخارجية للمسجد، والتي لمح فيها الحاج سلامة سميرًا، وهو يغادرها متوجِّهًا إلى مطعمه، وقد شيعه بنظرة استغراب، وانتبه عندما وقف بينهم خطيب الجمعة، وهو يبادلهم التحية، ودَعَوه لتناول كوب من الشاي في مقهى الحي، لكنه اعتذر واستأذن بالانصراف.

***

هادئ الطباعِ، لا يعرف عنه الجيران الكثيرَ من حياته، فهو يغدو نهارًا ويروح ليلًا، لا يجلس- مثل باقي رجال الحي- على المقهى، ولا يخالط أحدًا من الجيران إلا عددًا قليلًا منهم بحُكْم التعامل؛ كالحلاق والبقال وصاحب المطعم. ولم يتحدث مع أحدٍ مَنهم إلا في الموضوعات العامة، يدخل الحي يُلقي السلام على من يعرف وهو ذاهب لمسكنه الذي لا يتركه إلا في اليوم التالي للذهاب إلى عمله.

***

وذات يوم جلس بعض الجيران مع الحاج سلامة صاحب المطعم الذي كان سمير من روَّاده يوم الجمعة من كل أسبوع إذا لم يسافر إلى بلدته، وهو الوحيد الذي كان يسمح له سمير بالجلوس والحديث معه أثناء تناول الطعام عنده، فقد كانا يتحدثان في أمور- عامةٍ وشخصيةٍ- سطحيةٍ، فقد كان سمير يضع خطًّا أحمر للتعاملً معه.

وعلم منه أنه من إحدى قرى الصعيد، واستأجر شقة بالقاهرة؛ لأنه يعمل بوزارة البترول، وقد حصل على مركز مرموق فيها، ويستحيل عليه أن يتركه، وقد كان مستأجرًا لشقة بحيٍّ آخر، ولكن كان مبلغ الإيجار باهظًا، لا يقوى عليه، ويريد أنً يرشد إنفاقه؛ كي يتزوج، هذا كل ما يعرفه الحاج سلامة عن سمير.

***

وفي الأحياء الشعبية القديمة كانوا يعيشون كعائلة واحدة، ولا يحبون أن يكون بينهم من يثير الغموض لديهم، أو من يكون أعزبَ.

فلما علموا أنه يريد الزواج؛ اقترح أحد الحاضرين أن يعرضوا عليه ابنة الحاج فتحي، فهو رجل صالح وربَّى بناته تربية صالحة، وأيضًا لم يلاحظوا على سمير أيَّ خُلُق يشينه فقد كان في حاله، ولا يثير أي مضايقات لأحد.

ارتسمت علامات الارتياح والموافقة على وجه الحاج سلامة، وهو يقول:

- إن شاء الله، سوف أعرض عليه الأمر، وربنا يقدم لنا الخير.

وقبل أن يهمّ بالانصراف اقترب منه الحاج سلامة، وأمسك بكرسي، ووضعه أمام طاولة سمير، واستأذنه في الجلوس معه، فانتصب سمير واقفًا، وأشار بيده قائلًا:

- تفضل بالتأكيد، يشرفني ذلك.

نادى الحاج سلامة على النادل، وطلب منه إحضار كوبين من الشاي، ثم همَّ بخفضِ صوته، قائلًا:

- أريد أن أحادثكَ في أمر مهم يا أستاذ سمير.

اتسعت حدقة عين سمير اتساعًا، وارتسم القلق على وجهه، وهو يقول بعد أن تحشرج الكلام في حنجرته:

- خيرًا يا حاج سلامة.

- أريد أن أحادثك في موضوع شخصي إذا أذِنتَ لي.

بعد تردد، قال:

- تفضَّل.

- لِمَ لا تتزوج يا بُني وأنتَ- ما شاء الله- شابٌّ لكَ مركز مرموق كما تقول في العمل، وتحصل على دَخْلٍ يعينكَ على الحياة.

بعد أن تنهد وأسند ظهره على كرسيه، وعقد ذراعيه أمام صدره، قال في تعجب:

- هل عندكَ عروس لي؟!

- بالطبع نعم، ولِمَ تحدثت معكَ في هذا الموضوع؟!

- أريدها ابنة أصول، وترضى بالعيش معي، فأنا مازلت في مقتبل الطريق، ولا أملك الكثير.

- هل تعرف الحاج فتحي مالك ورشة النجارة التي تقطن بأول الحي؟

- نعم، ألمحه حينما أغدو من العمل.

- تمام، فالحاج فتحي يربي بناته مثل ما قال الكتاب والسنة، ولا يستطيع أحد أن يمسك طرف فستان واحدة منهنَّ، وبناته مثل الألف في الشارع، لا يختلسون نظرة إلى اليمين أو نظرة إلى اليسار.

***

لم يُسمع لهم همسٌ وهم يراقبون ذلك المشهد من القهوة المقابلة للمطعم، ويحاولون استراق السمع، ولكن أسقط في أيديهم رغم قرب المسافة بين المطعم والقهوة.

***

شرد سمير قليلًا، وانتبه حينما أمسك الحاج سلامة بيده، قائلًا:

- ما رأيكَ فيما قلت؟ أأستأذن الحاج فتحي ونذهب سويًّا لنحتسي القهوة عنده الليلة؟

تلجلج سمير بالقول وهو يؤجل الميعاد إلى الجمعة القادمة.

- يا بُني، خيرُ البر عاجله.

- حتى يتسنى لي ترتيب أموري.

وبعد أن كان الحماس يظهر في بريق عينيه ونبرة صوته، قال في صوت يغلب عليه اليأس:

- كما يروق لك.

ولسان حاله يقول:

- ربما لا يريد أن يناسب الحاج فتحي، ومُحْرَج أن يتفوّه بها.

انتصب سمير واقفًا، وأبعد كرسيه من ورائه بإحدى يديه معلنًا انصرافه، وصافح الحاج سلامة، ورسم على شفتيه ابتسامة الموناليزا، قائلًا:

- نحن على ميعادنا الجمعة القادمة، لكن بعد أن توضح للحاج فتحي ظروفي وإمكانياتي، وأني سأتزوج بالقاهرة، وسأقيم بشقة أخرى تناسب الحياة الزوجية بدلًا من هذه الشقة الصغيرة التي أقطن بها.

وهنا، همَّ الحاج سلامة بالوقوف، وقد انفرجت أساريره، وضخ الدم في وجهه حتى اشرَأَبَّ بالحمرة، قائلًا:

- إن شاء الله، سأذهب للحاج فتحي بعد إغلاق المطعم، وأخبره عمّا أعرفه عنكَ، ولكن هناك بالطبع أشياء كثيرة يجب أن يعرفها منكَ شخصيًّا.

- إن شاء الله، بالطبع.

وودَّعه الحاج سلامة عند باب المطعم، ولوَّح بيده قائلًا:

- في رعاية الله، وأمنه.

***

وما إن شيعوا «سمير» بنظراتهم إلى باب بنَايته؛ حتى انقضوا على المطعم، وأزاحوا كراسي الطاولة التي جلس عَليها الحاج سلامة توًّا، وقال أحدهم:

- أخبرني يا حاج سلامة، ماذا قال لكَ؟

* * *

رفع الحاج فتحي عينيه من أوراقه التي على مكتبه، وما إن رآهم حتى قام من مجلسه بمكتب الورشة مادًّا كلتا يديه أمامه مُرحِّبًا، حتى وقعت عباءته من على إحدى كتفيه، فهمَّ بأخذها، وهو يخرج من وراء مكتبه قائلًا:

- مرحبًا مرحبًا، أي ريح طيبة أتت بكم؟ لعله خيرٌ.

ومدَّ يديه وصافحهم فردًا فردًا، وكان الحاج سلامة آخر من صافحه لوقوفه خلفهم، وأول من جلس بجواره على الأريكة المعدة لاستقبال الزائرين، ونادى:

- يا مجاهد، يا مجاهد.

وهنا قالوا له:

- لا نريد تناول أي مشروب؛ جئنا فقط للحديث معكَ في كلام تطيب إليه النفس.

همَّ واقفًا مادًّا إحدى قدميه باتجاه باب الورشة، مناديًا بأعلى صوت، وناظرًا باتجاه القهوة:

- مجاهد، ولد يا مجاهد.

هرول إليه مسرعًا، رافعًا إحدى يديه بالتعظيم العسكري، قائلًا:

- أؤمرني يا عم الحاج.

- أين كنتَ كلَّ هذا الوقت؟!

- معذرةً، كنتُ أرصّ ما يلزم لنرجيلة أحد الزبائن هناك.

- يا بني! لقد قلتُ لمعلمكَ مرارًا وتكرارًا عن أضرار تقديم النرجيلة للزبائن وأعلمته بأنه صدرت فتوى بأنها حرام. لا فائدة منه؛ سأذهب له مجددًا.

- الزبائن هم من يطلبونها.

- لو لم تجدها الزبائن عندكم لما طلبتها، يا بُني أنتم بذلك تساعدونهم على الحرام.

- وماذا أنا فاعلٌ يا عم الحاج؟

ملوِّحًا بيده باتجاه ضيوفه:

- سنتحدث في ذلك لاحقًا، ولكن الآن ادخل واسأل الرجال عمَّا يريدونه من مشروبات، وأتِني بها سريعًا.

وبعد أن طلب كلٌّ منهم مشروبه، وخرج مجاهد مسرعًا من الورشة، جلس الحاج فتحي بمجلسه السابق، ونظر إلى الحاج سلامة أقربهم إليه مجلسًا ومنزلةً، ثم أدار وجهه للجميع، قائلًا:

- خيرًا، ها أنا الآن كُلِّي آذان مصغية لكم.

قال أحدهم:

- سيتحدث لكَ الآن الحاج سلامة.

- خيرًا يا أبا الوليد.

- خيرًا بإذن الله وفرحًا يا أبا البنات، «وهي الكنية المحببة إلى قلبه».

- أنتَ تعلم أن بناتك هم بناتنا، وأولادنا أولادك، وأمرهن يهمنا، ونحب لهن الخير.

وبعد أن كان ظهره مسندًا إلى الأريكة، انحنى للأمام قليلًا مسندًا ذقنه بيده اليمنى، متجهًا برأسه للحاج سلامة، قائلًا في ترقّب:

- تفضل بدون مقدمات يا حاج.

- هل تعرف الأستاذ سمير، المقيم بمنزل أم سعيد؟، لقد رشَّحت له كريمتنا فاطمة للزواج، فما رأيك؟!

تنهَّد، وأسند ظهره إلى الأريكة، وسكت برهة، وقال:

- حسنًا، لكنني لا أعرفه.

- سنقص عليكَ الآن كلَّ ما نعرفه عنه، ولكَ حق السؤال عنه.

هذا ما قاله أحد الرجال المتواجدين، والذي قطع حديثه دخول مجاهد بالمشروبات، أخرج مسبحته من جيبه، وكأنه يلقي عليها توتره بهذا الخبر، ولم ينبس ببنت شفة، ولم يظهر على وجهه علامات الفرح، وبعد أن قصَّوا عليه كلَّ ما يعرفونه عنه، استطرد الحاج سلامة قائلًا:

- أخبرنا.. هل يناسبك الجمعة القادمة؟

- دعنا نسأل عليه أولًا.

ردَّ أحدهم قائلًا:

- لا عليكَ.. تقابله أولًا؛ ثم تعرف عنه كل ما تريده من معلومات، ومقر عمله، ومنزله بالصعيد.

ربت على إحدى ركبتيه، قائلًا:

- على بركة الله، يوم الجمعة القادم أشرب عندكم القهوة، ومعي الأستاذ سمير.

- أتشرف بكَ في أي وقت يا حاج سلامة.

* * *

يطيل النظر إلى كوب الشاي، وهو يرتشف منه رشفة ويشرد بعيدًا، لم ينتبه إلا على صوت آلة تنبيه أحد سيارات الأجرة المارة بهذا الشارع الضيق، فهبَّ من مجلسه ناظرًا مستندًا بباطن إحدى كفَّيه على سور الشرفة، وما إن بدأ يلوِّح بيده الأخرى لينهر قائد السيارة حتى وجده غاب عن نظره إلى نهاية الشارع بسرعة فائقة:

- ما الذي ألمَّ بكَ يا حاج؟! ما هذه العصبية التي أراكَ عليها الليلة؟ ولِمَ لَمْ تقصّ عليَّ ما حدث لك من أحداث اليوم كعادتكَ كل يوم؟!

انتبه لكلامها، وأخذ يسرد عليها ما فعله من إنجاز في عمله، وهي لم تترك موقفًا إلا وأطرت عليه، وعلى حسن تعامله مع الناس، وسرعة إنجازه للعمل، وكأنه كل يوم يجلس أمامها في هذا المجلس المحبب إليه؛ ليشحن طاقة القوامة والثقة بداخله؛ ليستكمل مشواره اليومي.

انفرجت أساريرها، ونقشت فرشاة الفرح خطوطَ الابتهاج على وجهها؛ حينما علمت بقدوم عريس لابنتها؛ فهي مثل كلِّ أمٍّ تريد الفرح لابنتها، ولكن عاد القلق إلى وجهها عندما تذكَّرت قلبَها العليل، وتحذيرَ الأطباء لها من بذل أي مجهود.

***

تخرّجت فاطمة من كلية دار العلوم، والتي آثرت البقاء بالمنزل بعد التخرج لمساعدة والدتها في تربية أخواتها، فهي كانت بمنزلة الأم الثانية لهن وقدوتهن في الحنان والإيثار.

***

لم تفقْ من قلقها هذا إلا عندما وجدت رأسها على صدر زوجها، الذي وقف ملتصقًا بها مربتًا على ظهرها، قائلًا:

- لا تقلقي حبيبتي، فالله يدبّر لنا الخير.

مسحت دمعة بظهر أصبعها، والتي عصتْها بالانزلاق من إحدى مقلتيها، وهيِ تقول:

- لا عليكَ، دموع الفرح أرادت أن تفرح معي.

وابتسمت وهي تمسك يده؛ لتعيده لجلسته أمامها، قائلة:

- أخبرني عن العريس، وعائلته، ومتى سيأتي؟

* * *

- إنه في اليوم الرابع من فبراير ١٩٩٨م، تمت مقابلة الحاج سلامة.

سطّرها «سمير» بدفتر يومياته كما اعتاد كل ليلة قبل نومه، ثم أغلقه ووضعه بجواره على «الكمودينو» الكائن بجوار فراشه، الذي استلقى عليه وحاول أن يراود النوم الذي خاصمه وتحالف مع جفني عينيه اللذين ظلَّا مفتوحيْن، ولم يرحم أنينَ فراشه من كثرة تقلّبه عليه، فما حدث اليوم كان يرجوه، ولكن ليس بهذه السرعة والتي لم يحضّر لها بعد. قطع تفكيره أذان صلاة الفجر الذي لم يسمعه من قبل، فقام متثاقلًا متكاسلًا ليصلي ثم سمع إقامة الصلاة، فما لبث أن نزل ليصلي بالمسجد كأنه يريد أن يترك همومه وقلقه فيه؛ ليخلد بعدها للنوم قبل موعد عمله بالوزارة.

رقص البيت فرحًا لفاطمة، والتي لم تتوانَ عن خدمتهم عن حب، فهذه تطلب العشاء وتلك تريد تصوير أوراق، وهذه تستذكر معها دروسها، ناهيك عن ليالي الامتحانات، التي لم يغمض لها جفن فيها

حتى تطمئن عليهن جميعًا، فكُنَّ يردْنَ أن يكافئنها، ولم يعرفنَ كيف؟ حتى سنحت لهن تلك الفرصة، والتي سرعان ما تحولت لقلقٍ في عين فاطمة.

❋ ❋ ❋

- أريدكَ في أمر مهم، أنتظركَ غدًا، وسأغدق عليكَ الكثير من العطايا، وإن لم تأتِ؛ فأنتَ تعلم ما الذي سوف أفعله بك.

قاله سمير، ثم أغلق سماعة الهاتف، وشرد بعيدًا وهو يطرق بأصابعه على الملفات التي أمامه على مكتبه، ولم يخرج من هذا الشرود إلا عندما نبَّهه الفرَّاش بأن المدير في الطريق إلى مكتبه، فقد كان يعمل سكرتيرًا لمدير الشئون القانونية بوزارة البترول.

❋ ❋ ❋

- لا أحب أن أتزوج الآن، فما زالت أخواتي بالدراسة، أريد أن أمكث معكم، وأهوِّن عليكِ مطالبهن.

أمسكت الأم بيدها، وأجلستها بجوارها على أريكتها المواجهة لجميع الحجرات بالصالة، والتي تستريح عليها بين الحين والحين عندما يهاجمها التعب أثناء النهار؛ لتستأنس بأنفاسهن حولها، وهمست لها وهي تمسح على شعرها بيدٍ حانية، قائلة:

- تقولين ذلك كلَّ مرة يتقدم لك خاطب، وتحت ضغطك نوافق على مطلبكِ، لكن هذه المرة لا؛ لأَن الوقت مؤهَّل لذلك؛ فزينبُ على وشكَ التخرج هذا العام فلا تحملي همًّا يا بُنيتي، أرجو منكِ أن توافقي؛ فأنا أريد أن أرى أولادكِ قبل وفاتي.

تُلقى برأسها في صدرها، وتذرف عَبراتها، وهي تقبل يدها ورأسها، قائلة بصوت شحيب:

- لا تقولي ذلك يا أمي، أعطاكِ الله البركة في العمر، وألبسكِ ثوب العافية، فقط أريد أن أؤجل هَذا الموضوع حتى تتخرج زينب من الجامعة، وأطمئن أنها ستكمل المشوار معكم.

تضمُّها الأم، وتنهار منها أنهار وأنهار من هويس دموع حاولت إغلاقه، وهي تقول لها:

- لم نجبركِ على الزواج، الآن فقط عليكِ بالمقابلة؛ وهناك إجراءات طويلة سيتخذها أبوكِ، وسيسافر لبلده ليعرف عنه المزيد.

وهنا، اتسعت حدقة عينها، وخرجت من حضن أمها، وهي تقول:

- هل سأتزوج بالصعيد وأترككم؟ لا. لا.. لست موافقة.

- يا بُنيتي، هو سيتزوج بالقرب من هنا، وهذه ميزة فلا تستبقي الأحداث. هيا، هيا اتصلي بماجدة لتذهب معكِ لشراء ما تحتاجينه من مستلزمات لهذا اليوم؛ فأنا لا أستطيع النزول، وأنتِ- منذ زمن- لا تريدين شراء ملابس لكِ، وتتحججين أنك لا تخرجين كثيرًا، وها قد أتت لكِ الفرصة، ولم تفلح معكِ الحُجَج.

❊ ❊ ❊

- ما رأيكَ في تأجيل موضوع سمير يا حاج سلامة؟

أنزل كوب الشاي من على شفتيه، ووضعه أمامه على الطاولة، وقال:

- ولِمَ؟! لقد قابلته فجرًا بالمسجد، وأخبرته بالميعاد.

- بالمسجد! قالها بتعجب: لكنَّني لم أرَه من قبلُ فيه.

- نعم، فهي أول مرة أراه فجرًا فيه، ولكنَّني لم أركَ وهذا نادرًا ما يحدث، لعل المانع خيرٌ.

– نعم، لقد شعرتُ بألم في ظهري، تناولتُ على إثره مسكنًا، جعلني أشعر بدوار خفيف؛ فصليتُ جالسًا بالمنزل.

– شفاكَ الله وعفاكَ يا أبا البنات، ولكن لم تذكر لي.. لمَ كنتَ تريد التأجيل؟

– وما هذا الحزن الذي لا يليق بفرحة أب بابنته؟

تنهَّد، وأسند ظهره للوراء، وأخفض رأسه ناظرًا لكوب الشاي، الذي أمامه، والذي أخذ يدور فيها يمينًا ويسارًا، وقال:

– هذا الكلام الذي سوف أسرده لكَ لا يعلم عنه مخلوق إلا شريكي «الحاج توفيق».

– تفضل يا حاج.

همس بها، وهو يقرّب كرسيه منه قليلًا.

– منذ فترة، أردتُ أن أطور في الورشة، فبدلًا من تصنيع مكاتب وأنتريهات، أردت أن أدخل تصنيع غرف النوم والسفرة، وهذا كان يحتاج لمبلغ كبير؛ فوضعت كل ما أملك من مال، ووقَّعت بما تبقى من مستحقات على شيكات، وميعاد استحقاق سداد أول شيك كان من أسبوع، وللأسف لم أستطع تدبير المبلغ فأعطاني التاجر مهلة أسبوعٍ؛ أدبِّر فيها المبلغ، وإلا سيبلغ عني النيابة.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، ولِمَ لَمْ تخبرني بهذا الموضوع من قبل؟

– لأنك لا تحب المغامرة، وقد تُهبط من عزيمتي.

– وهل استطعتَ تدبير المبلغ؟

– لا، فالمشروع لم يؤتِ ثماره بعد، وفكرت لو لم أستطع؛ سأبيع الورشة، وهي آخر ما أملك.

– انتظر، لا تتصرف في شيء؛ الله سيدبرها، اترك هذا الموضوع، وسأفكر فيه وآتي لكَ بالحل، أما موضوع فاطمة فسأحاول بطريقة ما أن أحادث الأستاذ سمير وأرجئ الموضوع؛ لا تعتلْ همًّا يا حبيبي؛ فمتى إذن نقف مع بعض إن لم نقف في مثل هذه الظروف؟!

همَّ متثاقلًا بالوقوف، معلنًا انصرافه من المطعم، وأثناء خروجه جاءه صوت النادل من ورائه، قائلًا:

– يا عم الحاج فتحي.

فالتفت إليه هو والحاج سلامة، الذي كان يمشي بجواره إلى باب المطعم.

– ما بكَ يا عوض؟

– تليفون للحاج فتحي، يا عم الحاج.

قطَّب حاجبيه مستغربًا من يعرف أنه هنا؟! وأمسك بيد الهاتف؛ ليستعلم عن المتصل، وبدت عليه علامات الغضب والاقتضاب، ثم أنهى المكالمة، وذهب للحاج سلامة الذي كان ينتظره على باب المطعم، وقال له:

– يا للحسرة!، لقد علمت فاطمة بمجيء العريس، وتستأذن في النزول لشراء ملابس لها، ما أنا فاعل الآن؟

– هوِّن عليكَ، هذه أقدار الله لا تعلم من أين يأتي لكَ الخير.

ربت على كتفه، وقال: «لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا»، فلا تقلق.

– إذًا، فلا داع لأن تخبر «سمير» بتأجيل الموضوع.

وأشاح بيده، قائلًا: السلام عليكم.

* * *

– يبدو أن هذا أفضلُ لونٍ عليكِ من بين تلك الألوان، فما رأيكِ؟!

– حسنًا؛ نشتريه.

– هيا نأتي بكل مستلزمات هذا الفستان قبل أن يمر الوقت علينا؛ فليس أمامي سوى ساعتين على ميعاد «فوزي» للذهاب معًا إلى السفارة.

– أما زلتِ يا ماجدة على قراركِ للسفر؟

– ومنْ لي هنا أحادثه، وألقي إليه بعض شجوني؟ فأنت تعلمين لابد أن أظهر لهم دائمًا بالقوية التي لا تتعب ولا تكلّ ولا تملّ، حتى لا أترك أثر شيء في نفس أمي؛ فتشعر بالعجز من كثرة طلبات أخواتي.

ضمتها ماجدة تحت إبطها، كما تضم الأم ابنتها، وطبعت قُبلة على إحدى وجنتيها، وقالت:

– لا عليكِ، سأفتح معكِ حوارًا مطولًا عبر شبكة الإنترنت؛ فهناك العديدَ من وسائل التَواصل أصبحت متاحة لنا بخلاف الهاتف والخطابات.

– رغم أن الحاسوب بمنزلنا، لم أفكر– يومًا– بالجلوس أمامه، إلّا إن هناك قرودًا تقبع أمامه.

ضحكت ماجدة، وهي تقول:

– أتقصدين زينب ورقية، فأنت التي أسرتِ نفسكِ في أعمال المنزل والكروشيه، فكم من مرة طلَبت منكِ أن تخرجي من عالمكِ هذا، وتتعرفي على المزيد.

– لم يعد هناك وقت عندي؛ فأعمال المنزل تلتهم معظم وقتي، وإن كان هناك وقت أستثمره في القراءة، أو كما قلتِ في الكروشيه.

– إذًا، سأطلب من زينب أن تنشئ بريدًا إليكترونيًّا لكِ؛ لأحادثكِ من خلاله.

– وكيف ذلك؟

– لا تحملي همًّا؛ ستعلِّمكِ زينب.

ضحكت وهي تقول:

– جاء اليوم الذي تعلمني أختي الصغيرة! إذًا فهي (أبلة زينب).

ضحكتا، وهما يكملان سيرهما باتجاه المحلات؛ لشراء باقي مستلزماتهم.

***

-٢-

الكروشيـــه

على أريكة الصالون المُذَهّب العتيق، جلس الضيوف، وأمامهم على الحائط المقابل لوحة كبيرة من الكنافاه، بها مجموعة من الورود والفراشات، يحيطها برواز ذهبي عريق، وأمامهم طاولة مستطيلة عليها مفرش من الكروشيه، والذي زيَّن الطاولة بألوانه الهادئة التي تُحْدث نوعًا من الانسجام مع لون الصالون، وبجوارها طاولة دائرية عليها مَزْهَرية تفوح منها رائحة الياسمين والورد الأحمر البلدي، والتي جاءت بها «ماجدة» لتهديها لفاطمة التي تعشق الورد البلدي.

عاد إليهم بعد أن تركهم برهة، مُرحِّبًا بهم مرةً أخرى، وأغلق باب الصالون العريض الزجاجي المقسَّم على شكل مربعات من الخشب، والذي نقش على زجاجه رسوماتٌ هندسية بألوان هادئة تحجب رؤية من يقبع خارج الصالون.

تفحَّص الحاج فتحي «سميرًا» ذا الوجه الدائري والحاجبين الأسودين شديدي الكثافة والعينين الغائرتين البُنِّيتين والأنف البارزة، والتي تعلو شاربًا كثيفًا أسودَ مثل شعر رأسه المموج، والذي كان يصففه على أحد الجانبين، وفوق منكبيه العريضين كان يرتدي قميصًا لَبَني اللون يعلوه بذلة كحلية اللون، وأسفلها بنطال رمادي اللون، ثم حذاءً أسودَ لامعًا، ويبدو على مظهره الطابع الكلاسيكي، ويجلس يمينه الحاج سلامة، والذي يغطى كتفيه عباءة من الصوف الأسود مثل عباءة الحاج فتحي تمامًا.

– وما هي أحوال الصعيد هذه الأيام يا أستاذ سمير؟ أتبدو كما نشاهدها في التلفاز؟ قالها الحاج سلامة، والذي شعر بتوتر الحاج فتحي، فأراد أن يخرجه من حالته هذه.

أدارَ سمير وجهه وكتفيه تجاهه، قائلًا:

- بل على العكس زاد فيها الإعمار والبنايات، ولكن مازالت هناك قرًى ونجوعٌ تحتفظ بجذورها في المظهر والجوهر.

- ومن أي القرى أنتَ يا أستاذ سمير؟

صوَّب وجهه تجاه الحاج فتحي، قائلًا:

- من نجعِ (سبع) بأسيوط.

- ومن لكَ بقريتكَ هناك؟

استدار مرة أخرى للحاج سلامة، وقال وهو يحوّل رأسه بينه وبين الحاج فتحي قائلًا:

- أمي، فأنا وحيدها، والدي تُوفِّي وأنا صغير، واستكملتْ هي مسيرة تربيتي إلى أن مرضت بمرض يجعلها لا تعرف أحدًا منَّا، ثم ما تلبث أن تعود لها الذاكرة فترة وتغيب فترات.

- ولِمَ لَمْ تحضرها معكَ إلى هنا؟

- لا أستطيع العناية بها؛ فأمراض الشيخوخة تكالبت عليها، وهناك من يخدمونها وأنا أتابعهم، وأسافر لها باستمرار.

وهنا دعا الحاج سلامة لأمه وأبيه، وأمَّن على دعائه سمير والحاج فتحي.

- الحاج فتحي من كبار رجال الحي، رجل محترم لا يتفوه بالغلط أو ما يشين.

- الله يكرم أصلك يا حاج سلامة، هذا كله من ذوقك.

- لا أجامل والله، لو كان أولادي كبارًا لكنت ناسبتك في بناتك الثلاثة، ونعم التربية، بارك الله لكَ فيهن. وبالمناسبة أين عروستنا؟ نادِ عليها يا حاج.

ابتسم وهو يقوم مترجلًا خارج الغرفة، وبعد برهة من الوقت، دلف للغرفة وهو يتنحنح؛ مما جعل سميرًا والحاج سلامة توجهت أنظارهما إليه بتلقائية.

- بسم الله، ما شاء الله، تبارك الله.
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله. قالها سمير وهو يقف مُرحِّبًا بها.
- أهلًا بعروستنا، بارك الله لكَ فيها وفي أخواتها.

أشار لها والدها أن تضع صينية أكواب الشاي على المنضدة، التي تتوسط أريكات الصالون، ثم لوّح لها بأن تجلس بجواره في مواجهة سمير، الذي ما إن رآها حتى فغر فاه لمنتهاه؛ فقد كانت فاطمة تتمتع بوجه دائري ذي ملامحَ طفولية تجملها تلك العينان النجلاوتان المتمتعتان بكثافة أهدابها، والتي يعلوها حاجبان بُنِّيان يتمتعان بكثافة الشعر، مما يجعلهما كبرواز يحلِّي تلك العينين اللتان تستندان على وجنتين مرتفعتين، تزينهما حبَّتان من الزبيب الأحمر كلما تكلمت أو ابتسمت، ويجمل بشرتها المُشرَّب بالحُمرة- حُسنًا- حُمرةُ الخجل، والتي لا تستطيع مساحيق العالم أن تبرزه، وهي التي لم تستخدمه إطلاقًا طيلة عمرها، واكتمل هذا الجمال بتلك الطرحة وردية اللون، التي تعلو فستانها الفضفاض ذا الألوان المتداخلة من تدرج الوردي والقرمزي والأبيض، مما أضفى عليها شيئًا من الصفاء والرقة، واكتملت أناقتها بذلك الحذاء الأبيض ذي الكعب المتوسط، والذي زادها طولًا نسبيًّا؛ فهي تعتبر متوسطة الطول أما بالنسبة لسمير تعتبر قصيرة.

وكانت تفرك بأصابع يديها وهي خافضة نظرها بالأرض، وكأنها وقعت في غرام وردات سجادة الصالون!، وكأنها تراها لأول

مرة. تشعر بأن الجميع يسمعون دقات قلبها خجلًا، فهي تهاب هذا الموقف وتخشاه، وخاصة وهي تشعر بأن سمير ينظر إليها، والذي كان يختلس نظراتٍ سريعةً من حينٍ لآخر. وما إن لمح ذلك الحاج سلامة حتى قال للحاج فتحي:

– أريد أن أحادثكَ في أمر ما بالشرفة، فلنأخذ معنا أكواب الشاي، هيا بنا.

وهَمَّ منتصبًا ومعه أكواب الشاي، وأتبعه الحاج فتحي، والذي أصر على إزالة ستائر الشرفة وفتحها على مصراعيها.

وهنا سمع سمير يبدأ بالحديث مع ابنته، قائلًا:

– أهلًا وسهلًا.

– بصوت خفيض مرتعش: «أهلًا بحضرتك».

– كيف حالكِ؟

– الحمد لله.

ومازال عد وردات سجاد الصالون مستمرًّا

– من أي كلية تخرجتِ؟

– كلية دار العلوم.

– إذًا، أنتِ درعمية.

ابتسمت وأومات برأسها، وقالت: نعم.

– ولِمَ هذه الكلية؟

بدأت ضربات قلبها تسير في المعدل الطبيعي، وبدأ صوتها يُسمع قليلًا بدون ارتعاشة، وهي تنظر أمامها على الطاولة، قائلة:

– إنني أحب اللغة العربية جدًّا، وكنت أحصل على الدرجات

النهائية بها، وكنت أشترك في كل الأنشطة الأدبية بجميع مراحل تعليمي.

– إذًا، فأنتِ تهوين القراءة.

– أكتب شعرًا وخواطرَ.

واسترسلت في الحديث، وعيناها تلمع فرحًا كالأطفال، وابتسامة هادئة تنوّر وجهها، واستطردت قائلة:

– وأهوىِ الحياكة و»الكروشيه» انظر هذا المفرش أنا من صنعته وبرواز « الكنافاه» هذا أنا من طرزته بيدي، ثم أشارت إلى البرواز الذي يعلوها على الحائط.

ولكن سرعان ما انطفأت فرحتها عندما وجدته لا يبدي اهتمامًا أو إعجابًا يشفي فرحتها بأعمالها؛ فآثرت الصمت ولم تتحدث عن بقية هوايتها كالتطريز وصنع الحلويات.

– لِمَ لا تلتحقين بعمل؟

واختلست نظرتين عفويتين لترى ملامحه، وهي تقول:

– لا أستطيع ترك والدتي بعد مرضها؛ فالطبيب حذرنا من أن تبذل مجهودًا وأخواتي مازلن في التعليم، فقررت أن أقوم أنا بخدمتهم وأكون بجوارها طيلة اليوم حتى لا تبقى وحيدةً نهارًا.

هز رأسه، وقال:

– عظيم بارك الله لكِ.

حلق طائر الصمتَ عليهما، وحينها نهض الحاج فتحي والذي تابعه الحاج سلامة قائلًا:

– انتظر قليلًا ياحاج.

– لا، يكفي هذا إن قدر الله لهما نصيبًا؛ فسيجلسان كثيرًا ليتعرفا أكثر على بعضهما.

وقف بالحجرة مبتسمًا، وناظرًا لفاطمة، وأشار برأسه لها معلنًا لها تركها للحجرة، وبعد أن استأذنت بالانصراف، جلس أمام سمير قائلًا:

- ما هو مزاجكَ في القهوة؟

- لا أشربها، بارك الله فيكَ سأنصرف الآن.

وانتصب واقفًا، ومد يده ليسلم على الحاج فتحي، والذي قام وبادله السلام، ثم خرج وتنحنح قليلًا، ثم دعاهم للخروج.

***

- ما رأيكِ يا فاطمة

- في ماذا يا أمي؟ (قالتها على استحياء).

وضعت يدها تحت ذقنها رافعةً رأسها، قائلة:

- أرى الفرحة ترقص بعينيك.

وهنا انطلقت فاطمة بالحديث، قائلة:

- في الحقيقة يا أمي، لم أتحدث معه كثيرًا؛ لكي أتعرف عليه أكثر، وخاصةً في الدين، ولكن عندما بدأت أتحدث معه عن هواياتي لم يهتم بما رآه من مفارش الكوروشيه وبرواز الكَنافاه والقراءة.

قاطعتها أمها، قائلة:

- أحب أن أعلمكِ أن من طبائع بعض الرجال عدم الاكتراث بهذه الأشياء.

قاطعتها قائلة:

- لكن أبي يهتم بكل ما أهتم به أنا وإخوتي ويساعدنا على ذلك.

- حبيبتي أريد أن أعلمكِ شيئًا، إن حبَّ أبيكِ لكِ يختلف عن حب زوجك لك، واهتمام أبيكِ باهتماماتك يَختلفَ عن اهتمام زوجكِ. فحُبُّ الأَب فطري لا ينتَظر منكِ أنَ تبادليه الحب بالحب؛

ليعطيك أو يهتم باهتمامك، لكن حب الزوج حب متبادل تبذر فيه بذورُ القَبول، وتُروى بالاَحترام والمودة والرحمة؛ لتزدهر ورودُ الحب وتفوح رائحتها على من بسكن الزوجية، فتزكم به أنوف الأبناء، حتى يتخلل المخ والعظام؛ ليصبح الحب عندهم عادة بكل فروعه وليس الغرام فحسب؛ لذا ستجدين أن من شبَّ أبناؤه على الحب؛ سيجني ثمار برِّهم بعد ذلك.

إن «حب الرجل عقل، وحب المرأة قلب».

***

- أخبرني يا أستاذ سمير ما رأيكَ؟

- ما شاء الله، ربنا ييسر الخير.

- إذًا، دعني أبارك لكَ.

- إن شاء الله. ولكن بعد أسبوع سأسافر إلى بلدتي يا حاج سلامة.

- هلَّا ذكَّرتني الآن، فمن سيحضر معكَ لمقابلة الحاج فتحي؟

- وهل أنا لست بكاف أن أحضر بمفردي؟ (قالها وهو يبتسم).

- إطلاقًا، لكن أنتَ أعلم مني بالأصول، فلا بد أن يحضر معكَ أهلكَ، وكما قال أجدادنا: «اللي ما لوش كبير بيشتري له كبير».

- إن شاء الله ياحاج سلامة، أستأذن الآن حتى أستطيع الخلود إلى النوم قبل الذهاب إلى العمل.

- سأراكَ في صلاة الفجر.

- ربنا ييسر يا حاج.

افترق الاثنان، كلٌّ في دربه.

***

-٣-

ذكريـات

– لكنني شعرت أنه يكبرني بسبع أو ثمانِ سنوات. (قالتها فاطمة لأمها، وهي مستنكرة).

أمسكت بكفيها المتوترتين، وجلستا على سريرها الواقفين أمامه بحجرتها، واستطردت قائلة:

– سأقص عليكِ موقفًا لن أنساه، وتعلمت منه الكثير، وجاء الوقت لتتعلمي أنتِ منه أيضًا؛ أول سنة زواج كنت قادمة من بيتِ جدتك، ولي طباع مختلفة عن طباع أبيك، وهذا شيء طبيعي- كلٌّ منَّا نشأ في بيئة مختلفة- كنت صغيرة السن وحدثت مشاجرة بيني وبين أبيك، وكانت قبل وقت العمل صباحًا، ثم ذهب إلى عمله، وذهبت أنَا بعدها لمنزل جدّكِ بعد أن أخذت معي بعضًا من ملابسي، استقبلتني أمي بالترحاب ولَكن بعد أن رأت حقيبة ملابسي تحوَّل الترحاب لتوبيخ، كان البكاء ردّ فعلي فلم أرَ من أمي هذا الوجه إلا في أصعب الغلطات التي تحدث مني وأنا صغيرة، فشعرت بجرم ما فعلته ولكن لا أعرف ماذا أفعل؟ تركتني أبكي بحُجرتي حتى غلبّني النوم وابتسمت، هو لم يغلبني دون إرادتي، ولكنني كنت أهرب به كما كنت أفعل وأنا صغيرة.

وبعد عدة ساعات، استيقظت وذهبت لأجلس مع أمي، وهنا جاء أبي من العمل، وما إن وجدني حتى فتح لي ذراعيه، وضمَّني، وقبَّلني، وأسدل على شعري وأجلسني بجواره وربَتَ على ظهري، وسألني بهدوء: كيف حالكِ؟ متى سيأتي زوجك للغداء معنا؟ نظرت لأمي، وقد توقف شهيقي، وأردت أن تبتلعني الأرض، فبعدت عنه

قليلًا، وسردت له ما حدث. وقبل أن أكملَ نهرني وانتفض واقفًا ماسكًا يدي، وبنبرة صوت لم أسمعها من قبل منه- حتى وإن كنت أخطئ وأنا صغيرة- وقال لي: هيا أحضري حقيبتكِ، وهذه الفعلة لا تكرريها مرة أخرى، كيف تخرجين من بيتك بدون استئذان زوجكِ؟ هل قصرنا في تربيتكِ؟ هيا إلى بيتكِ قبل أنَ يكتشف زوجك غيابكَ.

لم أستطع أن أتفوَّه بكلمة، أدركت وقتها أن ما فعلته أَمرٌ.. جُلٌّ عظيم، وعندما وقفنا عند باب شقتي هممت بإخراج مفتاحي من حقيبتي؛ فقال لي: انتظري..!! دُقِّي الجرس أولًا؛ لعل زوجكِ يكون بالداخل وأنا لم أستاذنه بالدخول.

وعندما رد عليَّ أبوكِ من الداخل، طلب مني جدُّكِ أن أخبره أنه معي.

وما إن فتح لنا الباب حتى وجدته مُرحِّبًا بجدِّكِ ترحيبًا حارًّا، وارتسمت على وجهه ابتسامة أظهرت ثناياه، وكاد يطيرعقلي وكأن شيئًا لم يكن؛ أم إنه فقد الذاكرة عما دار بيننا صباحًا، واستطردت قائلة: وهممت بتوضيح وجودي بالخارج وجدته يسارعني بقوله: أحضري الطعام سريعًا، حتى أتشرف بالغداء مع عمي الحاج «دي مجيته على راسي من فوق »، وهنا تدخل جدُّكِ بالقول: معذرة يا بُنيّ عما.. أقسم عليه أبوك ألا يستكمل حديثه، وقال: يكفي مجيؤك يا عمي، حضرتك أكبر كنز حصلت عليه، واستطرد: الخطأ من عندي؛ ذهبت للعمل وتركت الجرح ينزف، ولم أبالِ بتضميده.

كنت أقف خلف ستارة المطبخ، وأنا في حالة ذهول مما أجده من ردة فعل أبيك، وفجأة اختفى صوتهما، أزحتُ الستارة قليلًا؛ فوجدت أباكِ خافضًا رأسه أمام جدِّكِ ويحادثه بهمهمة.

- وماذا كان يقول لجدي يا أمي؟

- علمت من أبيكِ بعد عدة سنوات أنه كان يترجاه أن يسامحني ويرضى عني؛ لأنني مازلت صغيرة.

- ياليت الرجال مثل أبي يستسمح جدي ليسامحكِ؟ أيّ رجل هذا! كيف تربى؟!

- لذلك يا ابنتي؛ منذ ذلك الوقت وجدّك يستشيره في كل شاردة وواردة، وكان أكثر المقربين له حتى أقرب من خالكِ «هداه الله وعفاه».

وطأطأت رأسها لأرض الحجرة، وشردت قائلة بصوت حزين:

- حزن أبوكِ عليه حزنًا شديدًا.

- يا حبيبي با أبي.

حاولت فاطمة أن تصرف أمها عن حزنها؛ فتساءلت قائلة:

- وماذا عن أبي بعد أن ترككم جدي في هذا اليوم؟

افتَرَّ ثغرها عن ابتسامة وضَّاءة، واصطبغ وجهها بالحُمرة، كأنها ابنة العشرين وهي تقول:

- توجست خيفة وتربصت أنظر إليه، كان ظهره لي بعد أن أغلق الباب وراء جدّك، ثم التفت لي، وهو يبتسم، ثم قال: هيا نذهب إلى الشرفة؛ أريد أن أتحدث معكِ قليلًا.

اتكأت بظهرها على وسادة السرير، ومدّدت قدميها، ونظرت إلى السقف وكأنها ترى شريط ذكرياتها يُعرَض أمامها، وتحدثت بابتسامة أكبر بعد أن تنهدت قائلة: أجلسني أمامه وبيننا الطاولة، وسرد لي الكثير من الحكايات والمواقف منذ أزمنة كان يسمعها من أبيه وأمه عن الحياة، وقد كنت أعشق تلك الحكايات منه؛ فكان أبوك

قاصًّا بارعًا، ولكن في هذه الليلة كنت أملُّها، وأشعر أن أذني ترفض سماعها؛ فقد كنت شاردةً بعيدًا، ولسان حالي يقول: ماذا سيفعل بي بعد أن تركني أبي؟ وفي هذه الأثناء، انتبهتُ ليده تمسك بيدي، والتي كنت أسند بها ذقني، فإذا به يجذبها فتسقط رأسي فضحكنا. وانتابتنا هيستيرية ضحك جعلت عدوتها تصيب فاطمة أيضًا.

*****

كل هذا ضحك! ألم يأتِ نصيبنا من هذا الضحك؟ ثم جرت على الباب وأطرقته، جاءها السؤال:

- من بالباب؟

- أنا زينب.

- هل تريدين شيئًا يا ابنتي؟

- أريد نصيبي من الضحك، أنا ورقية.

نظرت الاثنتان لبعضهما، وانفجرتا بالضحك مرة أخرى، واستطردت الأم قائلة:

- سآتي لكِ غرفتكِ يا حبيبتي، أضحك معكما. ولكن اذهبا الآن أريد الانفراد بفاطمة.

عدلت الأم من جلستها، ووضعت وسادة وراء ظهرها، ورفعت فاطمة قدميها على السرير، عاقدة ساقيها أسفل منها، وقالت بلهفة:

- هيّا يا أمي، استكملي.

في وسط ضحكاتنا، قال لي: يا غالية، أعلم أني أغضبتكِ، وأعلم أن كلًّا منَّا له طبع وتطبُّع نشأ عليه، فما رأيكِ نمزج الطبعين معًا، ونستخلص طابعًا جديدًا، قلت له: كيف؟! تركني وذهب، ثم أتى بورقتين وقلمين، أعطاني ورقةً وقلمًا، وجلس أمامي، وقال: الطابع

الحسن الذي أجده فيكِ أكتبه، وأنتِ كذلك الطابع الجيد عندي، اكتبيه.

بدأنا نكتب إلى أن انتهينا، فقال: اقلبي الصفحة، واكتبي الطابع السيء عندي وسأكتب ما لا يروق لي من طابع لكِ. فكرنا كثيرًا، واستغرقنا وقتًا أكثر من الأول فطلب مني الورقة، فأعطيتها له على استحياء، ابتسم وقال: كلنا بشر، والكمال لله وحده، ولكننا نسعى للكمال، وأول خطوات الكمال معرفة ما بنا من سوءات للوقوف عليها وتعديلها، أو استبدالها فأخذتُ نفسًا عميقًا، وأرخيتُ ظهري على الكرسي؛ فقال لي: الآن سَرَت الراحة بجسدكِ؟ أومأت برأسي بنعم، ابتسم لي ابتسامة شعرت أنه أبي وليس زوجي؛ فمن عوامل نجاح الأسرة يا فاطمة أن يكون لكِ الزوج أبًا وابنًا وزوجًا غيورًا محبًّا.

– هل كنتِ تخافين من أبي؟

– لا، كنتَ أخشى أن يغضب مني؛ فله في قلبي احترام وهيبة.

– بعد ما أخذ أبوكِ مني الورقة، نظر لي ومال برأسه، واقترب مني قائلًا: إن اقتنعنا أن نجعل هذا البيت قائمًا وناجحًا دائمًا برضى الله ونملأه بالأولاد، لندخل السرور على أهالينا. إذًا، فلنجنب صفاتنا السيئة ونستبدل بدلًا منها صفات جديدة حسنة.

– لا أستطيع أن أستوعب يا أمي، مثل ماذا؟

– سأضرب لكِ مثلًا: أبوك كان يحب أن ينام والإذاعة بجواره بصوت عالٍ، وبالطبع هذا كان يزعجني فاستبدلنا ذلك بصلاة ركعتين قبل النوم والقراءة سويًّا من مصحف واحد حتى نختم القرآن معًا وبعدها ننام، فكان هذا أفضل لنا بكثير، وهكذا عادات وآفات شَرَعْنَا في تغييرها مع الأيام.

واستكمل أبوكِ قائلًا: إن حدث بيننا سوء تفاهم، أرجو ألّا تذهبي لبيت والدكِ، لم أعد أحتمل أن أراه مرة أخرى محرجًا أمامي مثل اليوم؛ فلا تضعيه في هذا الموقف مرة أخرى، وإن كان- ولا بد- فاغضبي عليّ، واجعليني أترك الحجرة، ولا تتركيها أنتِ ولا تطعميني ولا تسقيني. والأهم أن تعلميني بما أغضبكِ مني؛ فإن تركتِ الغضب يجيش في صدركِ فسينفخ فيه الشيطان ليوغركِ مني، وتتصعد نيران الغضب. ووقتها لا نستطيع أن نخمدها.

- هل فعلتِ ذلك يا أمي؟

- بالطبع لا، فكيف يهنأ لي بال، ويغمض لي جفن؛ وأبوك يبيت خارج الحجرة؟ فهذا عيب في حقي، وثانيًا لا بدّ أن أقابل كرمه هذا بكرم مني.

- فكيف كنتِ تتصرفين حين الغضب؟

- مع مرور الأيام، علم أنني عندما أغضب أذهب لأجلس في الشرفة وحدي حتى أهدأ، ثم أجده يأتي ليجلس معي ومعه مكعب من الشيكولاته وكوبان من العصير، الذي يصنعه بنفسه، ونبدأ في تصفية ما بيننا.

هزَّت رأسها، وهي تقول:

- الآن، علمت لمَ كان أبي يأتي لنا بمكعبات الشيكولاته دائمًا عندما كنا نبكي حتى نهدأ.

- نعم. ومازال يأتي لي بها، ولكن دون أن أغضب.

علا ضحكهما، بل قهقهتهما من وراء الباب الذي طرقته مرة أخرى زينب قائلةً: ألم يأتِ الوقت لأضحك معكما؟

- بل جاء يا زينب، عندما يأتي أبوك من صلاة العشاء سنلتف

حول طاولة العشاء، وسنضحك حتى الصباح، هل تستطيعين تحضير العشاء اليوم بدلًا من فاطمة؟

– نعم يا أمي، ولكن عليكما ألا تتأخَّرا.

أغلقت وراءها باب الحجرة، والتفت الأم إلى فاطمة، وقالت:

– الآن يا ابنتي، قومي لتبدلي ملابسكِ وتستعدّي للعشاء.

– سأفعل يا أمي، ولكن بعد أن تستكملي ما قاله لكِ أبي، فزينب ستحضر لنا العشاء بعد عشر ساعات.

وهَمَّا أن يصدح صوتهما بالضحك مرة أخرى، ولكن وضعت الأم يدها على فيه فاطمة، وهي تقول:

– (ششششششش) ستعود مرة أخرى زينب، وسيكون العَشاء إفطارًا يا بنيتي، واستطردت قائلة: قبَّل أبوكِ يدي، وهو يقول: اتفقنا يا ست الستات يا أم البنات، ضحكتُ، وقلتُ: ولِمَ أم البنات؟ قال: لأني أحب البنات جدًّا، وخاصة إن هناك حديثًا عن الرسول الكريم– صلَّى الله عليه وسلم– يقول: (من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وسرائهن وضرائهن؛ أدخله الجنة بفضل رحمته إياهن، قال رجل: وابنتان؟ قال: وابنتان، قال رجل: وواحدة؟ قال: وواحدة). لذا فأتمنى من الله أن يرزقنا ثلاث بنات، وأطلق عليهم أسماء بنات النبي– صلى الله عليه وسلم: فاطمة، وزينب، ورقية.

– يا حبيبي يا أبي، اهتممتَ بأسمائنا أيضًا، في هذا الزمن إذا حدث ذلك مع زوجة سيقول لها الزوج: أبوكِ لم يتحمل مكوثكِ عنده، أم لم يستطع أن يطعمك؟، أم إنك كنتِ هَمًّا عليه وأزيح؟، سيستغل ذلك ويعايرها به دائمًا.

– يا حبيبتي، الزواج رزق، ومحدَّدٌ بالثانية والدقيقة، ولكن مع كل

نعمة قد تأتي ابتلاءات؛ لتختبر قوة إيماننا وثقتنا بالله. وهل تعتقدين أنني وأباك لا نتشاحن لأننا نضحك أمامكن ونمزح؟ إطلاقًا، ولكن وجود الاحترام والتقدير بين الزوجين ومع طول مدة العشرة، والتي تخلق المودة والرحمة؛ أصبحنا نفهم بعضنا من نظرة العين، والاختلاف سُنَّة كونية ولكن معالجة الاختلاف تختلف من فرد لآخر، وهذا هو الذكاء، وطالما إن هدفنا واحد وهو إرضاء الله بالنهاية؛ فسنسير له، كذلك الصدق؛ فلا يُبنى بيت سليم على إخفاء شيء عن الطرف الآخر، فسيكون واهنًا كبيت العنكبوت، والابتلاء على قدر الإيمان والتحمل؛ فأعمال الإنسان التعبدية قد لا تصل به لأعلى درجات الجنة فيأتي الابتلاء ليزيد من درجات المرء إذا صبر وحمد ربه، ولم يشكُ ربه للناس.

كانت تنصت لها باهتمام، ولكن قاطعت كلامهما طرقاتُ زينب على الباب وإعلانها بأن الطعام جاهز.

قامت الأم ساندة بإحدى يديها على المنضدة الصغيرة القابعة بجوار السرير، واليد الأخرى تسند بها على يد فاطمة، التي قامت معها لتعينها على تلبية نداء زينب، ثم توقفت عن السير، وقالت:

– إذًا، ما هو رأيك؟ أتشعرين بالراحة تجاه سمير أم لا؟

– مبدئيًا أشعر ببعض الراحة، ولكنني سأستخير الله أولًا، وأريد أن أعرف رأي أبي عنه.

ربتت على كفيها، وقالت:

– وفقكِ الله يا حبيبتي.

وطبعتَ قُبلةً على جبينها.

***

-٤-

خِطبة بالإحراج

جلسا سويًّا بالشرفة كعادتهما كل يوم، ولكن هذا اليوم مختلف؛ فالجمعة بالنسبة لهما كانت تجمع البنات حول الأب والأم، وصدح الضحكات بين جدران البيت حتى منتصف الليل.

شاهدت القلق يطلّ من شاشة عينيه اللامعة حين سألته عن رأيه في العريس، حينها كان يتجنب سهام نظرة عينيها له؛ فهو لا يستطيع أن يخبأ عنها شيئًا منذ زمن؛ فستفضحه عيناه قبل كلماته، وأجاب بعد شهيق عميق:

– لا شيء.

وأسقط توتره على كوب الشاي، الذي أمامه حين أمسكه بين يديه، وهو يتفحصه يمينًا ويسارًا، وكأنه لأول مرة يراها.

– هل وجدتَ عيبًا في العريس؟ (قالتها الأم بخفوت).

– فأجابها: لا أبدًا، إلى الآن لم يعبه شيء، تكلمنا معًا في بعض الأمور العامة.

– إذًا، فما الذي أهمّك كلَّ هذا؟! أتخبّئ عليّ؟ فأنتَ لم تفعلها بحياتنا.

– كيف لي أن آتي المنزل ولا أجد فاطمة؟

– أعلم مدى حبكَ لفاطمة، ولِكن لا تنسَ الزهرتين الأخريين، فلن تسلم من رقية إذا سمعت منك ذلك.

قالتها وهي تضحك، تظن أن هذا سيضحكه هو أيضًا، ولكنه رسم ابتسامة خفيفة على شفتيه، وقال:

– لا أستطيع أن أغضب أيًّا منهن، ففاطمة هي العمود الفقري للبيت.

ذرفت دمعة منه، وهو يزيحها بأصبعه، وقال:

– لم أستطع أن أعيش لحظةً واحدةً إن حدث لها مكروه من زوجها.

– اهدأ يا حاج.. لمَ كل هذا؟

– أخشى ألّا أستطيع حمايتها.

– كل هذا في يوم المقابلة! وماذا تفعل يوم عقد قرانها؟

– آه، لا تحدثيني عن هذا اليوم، ولكنني أيضًا أريد أن أبتاع لها كل ما تتمناه من حاجياتها.

– رزقكَ الله الصحة والبركة في العمر يا حاج؛ حتى تسعد بعُرس أبنائها، ولكنها سُنَّة الكون، وستفرح بها غدًا وهي آتية إلينا بأحفادنا.

أمسكت يده، وقالت له:

– نحمد الله أن شقَّتها بجوارنا.

قاطعها قائلًا، وهو يسحب يده منها، ويسند ظهره على الكرسي. ونظر للفضاء الرحيب أمامه، وهو لا يرى في السماء القاتمة سوى تلك النجمة اللامعة، وكأنها فاطمة:

– عرفت من سمير أنه سيبتاع شقة كبيرة تصلح للزواج بحي آخر.

– بل اشترط عليه أن تقبع بتلك الشقة، حتى يأذن الله لهما بالذرية، فينتقلان إلى سَكن أكبر، لا أستطيع أن أتخيل ابتعاد فاطمة عني، وهي كذلك لم ترضَ برؤيته إلا عندما أكدت عليها أنها ستسكن بجوارنا، واستطردت قائلة: أظن أنكَ بهذا قد اطمأننتَ عليها.

شرد بعينيه بعيدًا سابحًا في فضاء السماء مرة أخرى.

– لا، مازلت لم أطمئن حتى أسافر بلدته، وأذهب إلى مقر عمله، وأتحسس عنه. أعاد النظر لها، واستطرد قائلًا: ولكن بعد أسبوعين، حتى أكون قد أنهيت بعض الأعمال، وأستطيع أن أترك الورشة للحاج توفيق عدة أيام. والآن أخبريني: ما هو رأي فاطمة؟

– ما زالت مترددة، ولكن أوصتني أن أسألكَ أولًا عن رأيك، وسوف تصلي استخارة.

– حبيبتي. أسأل الله أن يهديها إلى الصواب.

قالها وهو يهمّ بالوقوف، ومادًّا يده لزوجته قائلًا:

– هيا يا عزيزتي نخلد قليلًا للنوم قبل صلاة الفجر؛ فلقد انتصف الليل.

❊ ❊ ❊

– كيف هذا يا أمي؟ ألم تقولين لي إنه مازال أمامنا أسبوع ويسافر أبي لبلدته؟ فكيف يأتي غدًا؟!

قالتها فاطمة بانزعاج عندما أخبرتها أمها أن «سمير» طلب زيارتهم يوم الجمعة.

– لا أعلم، اتصلَ أبوك بي من مطعم عمك الحاج سلامة، وأخبرني بأنه سوف يخبرني بكل شيء عندما يعود بالمساء، والآن علينا أن نجهز البيت لاستقبال الضيوف غدًا، ربتت على كفيها ناظرة بعينها قائلة: لا تنزعجي يا فتاتي؛ فكل ما تريدينه سيفعله أبوك فأنت نور عينيه، وقبَّلتها على وجنتيها، واحتضنتها لتطمئنها قائلة: «كُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَار »

❊ ❊ ❊

يجلس يساره المعلم صبحي، يبدو عليه بالعقد الرابع من العمر، نحيف البدن صغير الوجه، يخفي شاربه الأسود الكثيف ثلثَ وجهه، بينما يتوسط رأسه المعمم بعِمَّة بيضاء طاقية من الصوف البني الداكن لون جلبابه الصعيدي، والذي كان يعلوه شالٌ على كتفيه كشال مُقرئي القرآن الكريم.

وما إن جلس أمام ثلاثتهم حتى أشار سمير على المعلم صبحي، قائلًا:

- زوج خالتي عمي المعلم صبحي أتى معي من البلدة؛ ليتعرف على حضرتك.

- أهلًا وسهلًا بكَ وبالمعلم صبحي، القاهرة نوَّرت، وحي الجمالية ازداد نورًا بتشريفكما.

- الحاج فتحي يا معلم صبحي، من أشرف وأفضل رجالات المنطقة، وبناته- ما شاء الله- أشرف بنات المنطقة. (قالها الحاج سلامة، والذي كان من ضمن الحاضرين).

أومأ برأسه، وهو يبتسم، وقد أشار بيده ناحية الحاج فتحي:

- ما شاء الله. سيماهم على وجوههم، زادنا شرفًا.

وضع راحة يده على صدره، وخفض رأسه قليلًا، قائلًا:

- الشرف لنا يا حاج صبحي.

- عمي المعلم صبحي معي دائمًا في كل كبيرة وصغيرة، وهو يمتلك بساتين فاكهة، ويوزِّع لتجار الفاكهة بقبلي وبحري.

- ما شاء الله، زادك الله من فضله. (قالها الحاج سلامة).

- ما شاء الله، رزقك الله بالحلال، وبارك لك فيه.

ثم قدم لهم أكواب الشاي التي وضعتها فاطمة على الطاولة أمامهم.

أشار الحاج سلامة:

- هذه عروستنا يا معلم صبحي.

فنظر الحاج صبحي لها، وهو يقول:

- ما شاء الله، ألف مبروك يا عروسة.

والتي رمقها سمير بنظراته التي تلاحق خطواتها، وهي تغادر الحجرة بناءً على طلب والدها.

ودارت أحاديث بينهم عن التجارة والقرى والزراعة وموضوعات عامة، وبين الحين والحين تصدح الحجرة بأصوات ضحكاتهم. وسادَ جوٌّ من المودة والبهجة، ووسط هذا ألقى المعلم صبحي كلمة اهتزَّ لها كلٌّ من الحاج سلامة خجلًا، ووالد فاطمة ضيقًا وتعجبًا؛ عندما قال:

- خير البر عاجله. ورفع كفيه أمام وجهه، قائلًا: نقرأ الفاتحة. فرفع سمير مسرعًا كفيه أيضًا.

تبادل الحاجَّان سلامة وفتحي النظرَ، وبادر الحاج فتحي بقوله:

- لِمَ العجلة؛ فلنجعلها الجمعة القادمة بعد ما نزوركم بقريتكم.

إلَّا أن المعلم صبحي بعد أن غمزه سمير بقدمه؛ قال:

- فلنقرأ الآن، ولنسافر غدًا للقرية.. أم لكم اعتراض على ابننا سمير؟!

خجل الحاج فتحي، وهو يقول:

- إطلاقًا، بارك الله فيه، ولكنني سوف أسافر الجمعة القادمة بعد الانتهاء من بعض الأعمال هنا.

- إذًا، فلنقرأها الآن، وأنا سوف أسافر معك وقتما تريد، وسوف أجيب لك على كل سؤال تريده، وابتسم قائلًا: هيا، بسم الله الرحمن

الرحيم.

رفع الجميع أكفهم، وهم يقرأون الفاتحة. وبعد الانتهاء، دعا الحاج سلامة للعروسَيْن.

وبعد انتهاء الدعاء، وجّه المعلم صبحي كلامه للحاج فتحي، قائلًا:

- مفيش زغرودة، ألم يزعرد لنا أحدٌ لنفرح العروسين؟

أجاب والد فاطمة:

- يوم الفرح إن شاء الله.

ركل سمير قدم المعلم صبحي حينما شعر بضيق من الحاج سلامة، وسادَ جوٌّ من الصمت إلى أن قطع هذا الصمت صوتُ المعلم صبحي قائلًا:

- ربنا يتمم بخير، وعقبال أولادكم جميعًا، فلتسمحوا لنا بالانصراف.

* * *

-٥-

سبَقَ السيفُ العَزَل

أوصد وراءهم باب الشقة ببطء، وشرد برهةً، ولسان حاله يقول.. كيف لي أن أوافق على قراءة الفاتحة؟ ما الذي سأقوله لهم الآن؟ أخذ شهيقًا عميقًا، ثم استدار ليجد زوجته ماثلةً أمامه سائلةً إياه: ما بك يا حاج؟

نظر من فوق قامتها القصيرة، حتى وصل نظره إلى باب حجرة فاطمة، قائلًا- بهمس-: أين فاطمة الآن؟

***

- مبارك يا أستاذ/ سمير، ولكني أعتب عليك أنك لم تخبرني بهذه الخطوة، وفاجأتني أمام عمك الحاج فتحي.

توقف عن النزولِ من الدرج، وألوى جزعه، ونظر للحاج سلامة، وقال له مبتسمًا: - لقد فوجئت أنا- أيضًا- يبدو أن عمي صبحي يريد التخلص من عزوبيتي، أليس كذلك يا عم صبحي؟

قالها وهو يعود بجذعه مرة أخرى للأمام، وينظر للمعلم صبحي، والذي كان يسبقهم بعدة درجات، قائلًا- وهو يقهقه:

- هو كذلك.

***

اقتربت منه، وقالت بخفوت:

- فاطمة بحجرة نومنا! هل حدث شيء يا حاج فتحي؟

- قرأنا الفاتحة، وقبل أن يخبرها بما يجيش في صدره، وألا تخبر فاطمة بذلك وجد رقية فجأة بجواره، ولم ينتبه لها قائلة:

- هل ما سمعته صحيح يا أبي؟ هل بالفعل تمت خِطبة فاطمة؟

- نعم يا رقية صحيح.

وتابعتها زينب، فابتسم لهما، ومد ذراعه نحوهما، وأحاط بكتفيهما قائلًا:

- أهلا بأخوات العروسة.

همهم قائلًا:

- لا مف.، ثم نادى على فاطمة، قائلًا: على العروسة فاطمة أن تحضر حالًا.

وثَبَتِ البناتُ على فاطمة كالنحلات التي تنجذب للزهرة، وهي التي لبَّت نداء أبيها على استحياء، ثم جذبتاها مسرعتين إلى أبيهم، وأوقفتاها أمامه والذي أمسك صدغيها بكلتا يديه، وطبع قُبلةً على ناصيتها، قائلًا:

- مبارك يا حبيبة قلبي، تمت قراءة فاتحتك اليوم.

- بهذه السرعة يا أبي! وبدون مقدمات أو نأخذ وقتًا أكبر؟! لقد كنت أتوقع ذلك بعد انتهاء امتحانات أخواتي.

- خير البر عاجله يا بُنيتي، والله أعلم أني أحاول جاهدًا أن أبذل كلَّ ما في وسعي حتى أسعدك أنتِ وأخواتك، وأرجو أن تسامحنني إن حدث مني تقصير.

أمسكت فاطمة بكفه وقبَّلته، وذرفت دمعةً من عينيها، والتي أزاحها بأصبعه قائلًا:

- لا تبكي يا حبة القلب، فاليوم لا مكان للدموع.

ثم نظر للبنات، وصفق علي يديه: هيا يا بنات مع فاطمة لتحضير العشاء، وأرجو ألا تخبرن أحدًا بذلك حتى تنتهين من امتحاناتكن؛ لكي لا تنشغلن بكثرة المهنئين.

***

لقد كدت أن أفقد وعيي عندما طلبت منهم أن يزغردوا، حادثت نفسي. قالها سمير للمعلم صبحي، واستطرد:

- إن هذا القول من الممكن أن يفشل خططنا، لا تتفوه مرةً أخرى بكلام لا نتفق عليه أفهمت؟

- نعم فهمت، ولكن أين باقي الاتفاق؟ لن أعود لبيتي قبل أن تعطيني ما اتفقنا عليه.

- سأعطيك كل شيء، ولكن علينا الآن أن نخلد للنوم، فلا بد أن نستيقظ مبكرًا لأوصلك لمحطة القطار ثم أعود لعملي، وسنتحدث عن حقك بالطريق.

***

كانت أم فاطمة تتابعه بصمت وذهولٍ يسكن عينيها من أول لحظة، ولم تنبس ببنت شفة، حتى أخذها من يدها إلى شرفة حجرة الصالون. جلسا سويًّا، وأدنى رأسه من أذنها؛ ليوضح لها- بإيجاز- ما حدث، وكيف تم إحراجه من المعلم صبحي، ثم أرخى ظهره على الكرسي، وهو يؤكد عليها حازمًا.. ألا تخبر أحدًا من الجيران أو الأقارب عمّا حدث حتى رجوعه من السفر، وإن اطمأن؛ فسيعلن الخِطبة.

أومأت أم فاطمة برأسها بالموافقة، ومدَّت يدها، وربتت على ظهره، وهي تجلس بجواره؛ لتضخ فيه الاطمئنان والهدوء، لما وجدته من توترٍ بصوته وعينيه.

***

- لا تقلق يا حاج فتحي؛ فسأسافر معك لقرية سمير، ونسأل عنه كيفما تشاء، وقد أراد الله ذلك.

- لا أعرف كيف توقفت حواسي عن تأجيل تلك الخطوة وكأنني

مسحور، كنت أريد ألا أخبر فاطمة بأي شيء، ولكن الظروف حتَّمت عليّ أن أخبرها، لكنني قلِق من ذلك الاستعجال يا حاج سلامة.

– لا تقلق، توكل على الله، وهو الذي يدبر الأمر.

– «لِلهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ».

قالها، وهو يغادر مطعم الحاج سلامة متجهًا إلى ورشته.

***

– حبيبتي فطُّومة، ماذا سنأكل من يدك اليوم؟

– أردت أن أصنع لكم ما تحبون من طعام يا أمي، أنتِ وأبي وأخواتي.. صينية بطاطس باللحم الضأن، ولأخواتي صينية مكرونة بالبشاميل.

قبّلتها بغمزتها التي تزيّن خدَّها، ومسدت على شعرها المنسدل على كتفها، وقالت:

– لم تحادثيني يا حبيبتي عن شعورك بعدما صلّيت الاستخارة؟

– لم أصلها بعد يا أمي.

قالتها وهي منشغلة بغسيل الصحون.

قالت بانزعاج:

– ولِمَ!؟

– أرجأت ذلك حتى يهدأ عقلي من التفكير في هذا الموضوع، فيكون شعوري موضوعيًّا، ولا يتأثر بعقلي الباطن.

– لم تخبريني بذلك من قبل، حتى أوضح لك أن الأمر له أكثر من بُعد، مثل شعورك الداخلي. وهل الأمر يسير بسهولة أم يُعرقَل؟ وبعض الأحيان تأتي رؤيا للشخص بالمنام، ولكن سبقَ السيفُ العزل.

تركت ما بيدها من صحون، ونظرت- بانزعاج- لأمها، وهي تقول:

- ماذا تعنين يا أمي؟!

وهنا قطع كلامَهما دقاتُ الهاتف العالية، وجرت فاطمة لتجيب على المتصل.

* * *

علا صوتُ سمير، وهو يهاتف المعلم صبحي:

- لا تطلب مني أكثر من ذلك.

- لم نتفق على هذا المبلغ.

- بعد أن يتم الزواج على خير؛ سأكمل لك المبلغ أكثر مما اتفقنا، ولكن عليك الآن أن تغلق فمك، ولا تخبر زوجتك (البت حمدية)، وإلا سأمنع عنك كلَّ ما سأغدقه عليك من خير.

- لا، لا.. سأقول لها إنني ذهبت؛ لأبحث عن عمل بمصر.

- لا تفتح فمك بمجيئك عندي، قل لها إن أحد أصدقائك مرض، وطلب منك الذهاب معه للمركز الطبي بالبندر، ومكثت معهَ ليلةً بالمركز؛ حتى تطمئن عليه، أفهمت؟

- نعم، فهمت.

- ولا تتصل بي مرة أخرى من هذه القهوة؛ فإنني متأكد أن الكل الآن ينصت لحديثك.

- فماذا أفعل؟

- إن كان ولا بد؛ فاتَّصل من صيدلية دكتور محمود.

- حاضر، سأفعل.

أغلق سمير سماعة الهاتف، وهو ينفث قائلًا:

- غبي، وسيفسد كلَّ شيء.

وهنا انتصب واقفًا، حينما وجدَ المديرَ يدخل على مكتبه.

***

- من كان على الهاتف يا فاطمة؟

- إنها ماجدة. كانت تريد أن تحدّث زينب؛ لأن العمل الذي أعطته لها الأسبوع المنصرم تأخرتْ زينب عن ترجمته لها.

- هل أخبرتها يا بنيتي بما حدث أمس؟

- نعم يا أميَ، أخبرتها ليلًا.

- لِمَ يا حبيبتي؟ ألم ينبه والدُك عليكن ألا تخبرن أحدًا بهذا؟

- لكنها صديقتي يا أمي.

قطعت حديثَهما زينبُ حين وقفت أمامهما تخبرهما بأن ماجدة ستأتي ليلًا؛ لتأخذ منها بعض الأوراق.

همَّت الأمُّ بالخروج من المطبخ، وهي تقول:

- سأذهب؛ لأستريح قليلًا.

تابعتها زينب إلى حجرة نومها، وهمست قائلة:

- أريد أن أخبرك يا أمي بشيء، ولكن دون أن تعْلَم فاطمة.

أوصدت الأمُّ بابَ الحجرة، وهي تقول:

- خيرًا يا زينب!؟

- هل تعلمين.. لماذا ستأتي ماجدة الليلة؟

- نعم؛ لتأخذ منك شغلَ الترجمة الذي تعمليه لها.

- لا يا أمي. فهذه هي الحُجَّة التي قالتها لفاطمة، ولكنها ستأتي بعد المغرب هي وأصدقاء فاطمة؛ ليباركن لها على الخِطبة.

- ماذا يا زينب! ولَمَ لَمْ تُخبريني؟

قالتها، وقسمات وجهها تتغير للاندهاش. والانزعاجُ يطِلُّ من عينيها؛ ممَّا أخاف زينب، وقالت بتلعثم:

- توقعتك تفرحين لذلك، وتُرَحّبين أيضًا؛ فكلنا نريد أن نُفرح فاطمة. واستطردت قائلة: أشعر بشيء غامض في هذا الموضوع يا أمي، هل تخبئين سرًّا علينا؟

انتبهت الأم لردَّة فعلها، والذي ما كان ينبغي أن يحدث، وقالت- وهي تربت على كتف زينب:

- أبدًا يا حبيبتي، ولكن فاطمة لم تستعد لاستقبال صاحباتها، وأبوك لم يكن عنده عِلم بذلك، ولا تنسي أنه أخبرنا ألا نُعلم أحدًا بخِطبتها، ولكن سبق السيف العزل. أبلغي فاطمة بذلك قبل مجيئهن بفترة قليلة؛ حتى تكون على استعداد لاستقبالهن، وساعديها في اختيار أفضلَ ما لديها من ملابس تليقُ بهذه المناسبة، واتركيني الآن؛ لأنام قليلًا.

طبعت قُبلة على جبينها، وأطفأت إضاءة الحجرة، وهمّت بالخروج، وهي تقول:

- سأفعل كلَّ ما أمرتني به يا ست الكل.

- أسعدكن الله يا حبيبتي، وستَرَها معكن بالدنيا والآخرة.

***

- لا يا صفية، لا تتركيني وحدي؛ فأنا وبناتك في أشد الحاجة إليك. لا يا رفيقة عمري لا تتركينا كالأيتام.

- لمن تتركينا يا أمي؟، آه يا حبيبتي لماذا يأخذك الموت الآن منَّا؟

وعَلَت أصواتُ الصياح والضجيج، وانتفضت من سريرها، وشهيقُها يسابق زفيرَها، والتفتت يمينًا ويسارًا، وهي تتمتم:

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم».

ونادت بأعلى صوتها: يا فاطمة، يا فاطمة. ولا حياة لمن تنادي، وعلا صوتها أكثر: يا زينب، يا رقية.

وازدادت أصواتُ الضجيج علوًّا؛ حتى قامت من مرقدها، وتناولت إسدالها، وارتدته على عجل، ووقفت بالردْهة حتى استطاعت أن تميّز تلك الأصوات، والتى بدأت تتضح.. فهي زغاريد وأناشيد، وأحاديث ممزوجة بضحكات. اقتربت أكثر من الصالة، والتي وجدت بها صاحباتِ فاطمة يتراقصن ويصفقن، وهي كالوردة المتفتحة وسط أشجارِ الحديقة. وما إن رأتها زينب حتى هرولت عليها، وقالت:

- معذرة يا أمي، كلما حَثَثْتهن على إخفاض أصواتهن، علا بعد قليل، ولم أستطع التحكُّم فيهِنّ.

كان لسان حالها وهي تنظُر لفرحة فاطمة وسط أصحابها، يقول:

- أسعدك الله يا بنيتي، وتأتينا الرياح بما تشتهي السفن.

ولْم تنتبه من شرودها إلا عندما وجدت ماجدة تُمسك بيديها، وهي تقول:

- معذرة يا خالتي، لم أعلم بأنك كنت نائمة، ألم تجلسي معنا؟

- لا. سأمكث قليلًا بالشرفة، فلقد انتابني شعورٌ بصداع بسيط.

وجهت حديثها لزينب:

- أحضري لي كوبًا من الشاي هناك.

- سنغلق المسجل يا خالة.

- لا يا عزيزتي، أكمِلن ما كنتنَّ تفعلْن، وعقبال زفافكن إن شاء الله.

لمحت فاطمة أمَّها وهي تدخل حجرة الصالون، فأسرعت إليها؛ لتعتذر لها عمَّا سبَّبَته لها من إزعاج، وأخبرتها عن فرحتها بتلك المفاجأة العظيمة. وهنا، احتضنتها أمها قائلة:

- أتمنى أن تسعدي طيلة عمرك، ولا ترين بأسًا أبدًا، هيا يا حبيبتي أكرمي ضيوفك.

- لقد أتين ومعهن شربات يا أمي، سأحضر لك منه.

- ليس الآن يا فاطمة، فسأشرب كوبًا من الشاي. هيا، اذهبي أنت لصديقاتك.

شردَتْ بعيدًا تفكر فيما رأته توًّا بمنامها، وتناجي ربَّها أن يُسعد بناتها، ولم تنتبه من مناجاتها إلا بعد أن سمعت رقية، قائلةً وهي بطَريقها للشرفة:

- تفضلي يا خالة أم حسين، أهلًا يا خالة أم سعاد.

وما إن رأت جاراتها، واللاتي سمِعْن أصواتَ الزغاريد حتى انتفضت من مكانها، وارتسمت الفرحةَ على وجهها، واستقبلتهم كما تَستقبل أمُّ العروس مهنِّئيها، وأشارت بيدها لهُنّ قائلة:

- هيا لنجلس بالخارجِ مع البنات بدلًا من الجلوس هنا بالشرفة.

فما كان لها إلا أن تفعلَ ذلك؛ حتى لا تُسأل عن العريس وأحواله من قِبَلهم، وهي التي لا تعرف عنه شيئًا.

****

-٦-
ما يُخبِّئُه القَدَر

في صبيحة اليوم التالي، ودَّعت الأمُّ صفية زوجَها، وهي تحثُّه على ضرورة أن يُسرع بالسفر لبلدة سمير خلال هذا الأسبوع، ولا ينتظر ليوم الجمعة المقبل كما كان ينوي؛ مُعللةً ذلك بأن الخبرَ انتشر بين الجيران والأصحاب، ووعدَها بأنه سيتفق على ذلك مع شريكه.

***

لم يذهب سميرُ للعمل في هذا اليوم؛ لأنه كان على موعد مع رجل يعرض شقته للبيع، حيث سيعاينها سمير؛ لتكون شقة الزوجية.

***

نظفت فاطمة المنزل بعد ذهاب زينب لكُلِّيَّتها، ورقَيَّة لمدرستها الإعدادية، وبينما تضع الملابس على المنشفة بالشرفة، وجدت هرجًا ومرجًا بالحي، وصوت عويل وصراخ، مدت جزعها للأمام، وبصرها تجاه مَنْ كانوا بالشارع؛ فارتعدت فرائصها وهرولت خارج الشرفة، وهي تحكم قبضتها على حجابها، وخرجت من باب شقتها بهدوء؛ حتى لا تَشْعر بها أمها التي كانت تقرأ القرآن الكريم بغرفة نومها.

هرولت، وهي تهبط على الدرج، وضربات قلبها تسابق شهيقَها وزفيرها، وهي فاغرةً فاهَا، كادت أن تطوي الأرض تحت أقدامها، حتى وصلت لمكان تجمع الجيران بورشة والدها، والذي كان ملقًى على الأرض وهم يحاولون حمله على الأريكة القابعة بمكتبة بالورشة، وتدت قدمها بالأرض، وكان الصمت قد أسرَها في تلك اللحظة، وهطلت عبراتُها زخّاتٍ زخَّات، ولم يُسمَع منها سوى صرير أسنانها، ولم تنتبه إلا عندما احتضنتها إحدى الجارات، وأخرجتها مَن زحام الواقفين قائلة:

- اهدئي يا ابنتي؛ فوالدك بخير، وسيارة الإسعاف ستأتي الآن تحمله للمستشفى، ولكن أين والدتك؟!

- لقد تركتها بالمنزل، حتماً علمتْ بما حدث، جرت مسرعة باتجاه المنزل، وتابعتها الجارة، ونادت على أخرى؛ لتكون معها، وصعَدْن الدَرَج، وهنَّ يسمعن صراخَ فاطمة، وهي تقول:

- أمي، أمي، ما بك يا أمي؟، أغيثوني، أغيثوني.

وما إن دخلَ الجيرانُ الشقة حتى وجدوا الأم بالشرفة ملقاةً على الأرض، ورأسُها وجزءٌ من جزعها على ساق فاطمة، أعانوا بعضًا على حملها، ووضعوها على أريكة الصالون، ونادت إحدى الجيران ابنَها- الذي كان يقف بالحي- من الشرفة قائلة- وهي تشاور بيدها على نهاية الشارع:

- يا ولدي، اذهب للمركز الطبي، وأحْضِر لنا طبيبًا بسرعة.

***

وما إن أغلقَ سميرُ بابَ شقته مستعدًا للخروج لمقابلة السمسار، حتى تناهى إلى سمعه أصواتُ عويل ونفير سيارة الإسعاف بالخارج، فهبط مسرعًا على الدرج؛ فلمح الحاَج سلاِمة وهو يشاور له، وما إن وصل له حتى أبلغه بما حدث، ثم علا بنَظَره للشرفة؛ فوجد الجارةَ تنادي على جارةِ أخرى بالحي تحثُّها على الصعود حتى يأتي الطبيب. استأذن سميرُ الحاجَ سلامة الذي كان يركب سيارة الإسعاف مع الحاج فتحي؛ بأن يصعد ليغيث أهل البيت.

***

- اطمئنوا؛ سيكون بخير، ما الذي حدث له؟

قالها الطبيب، وهو يتفحص وجوهَ من أوفدوا مع الحاج فتحي، فأجابه الحاج سلامة: - لقد كان يعاني منذ أيام من ضغوط بالعمل،

واليوم زاره مأمور الضرائب، وما إن أعلمه بمبلغ الضريبة المستحقة عليه؛ حتى فوجئ به الحاج توفيق يهوي أرضًا. أخبرني بالله عليك، ما الذي يعاني منه الآن يا دكتور؟!

– في الحقيقة، لقد أصيب بجلطة بالقلب والمخ نتيجة للارتفاع الشديد بالضغط، وإن مرت بسلام؛ سيبقى – للأسف – مريضًا بشلل رباعي وفقدٍ للنطق.

علا صوتُ الملتفين حول الطبيب بالتهليل والحوقلة، ومنهم من أخذ يضرب كفًّا بكف، وهو يستغفر الله، ومنهم من استنَدَ على جدار الحائط، وآخر أخفى وجهه بيده؛ حتى لا تُرى عبراته.

– كم سيبقى هنا يا دكتور؟

قالها الحاج سلامة، وهو يلاحق الطبيب بالردهة الذي تركهم؛ ليهدؤوا فيها، فوقف والتفت وراءه، وقال له:

– اثنتن وسبعين ساعة تحت الملاحظة.

– استقلَّ أول قطار إلى القاهرة، وسأنتظرك بالمحطة، فالوضع هنا خطير.

أغلق سمير سماعةَ هاتف مطعم الحاج سلامة، ثم اتجه لمكان قصيٍّ، وأزاح الكرسي ليجلس عليه، وطلب من النادل فنجانًا من القَهوة، وشردَ بفكره بعيدًا ساندًا براحة يده على صدغه الأيمن، وناقرًا بأصابع يده اليسرى على الطاولة التي أمامه.

– أخبريني يا فاطمة، بالله عليك ما الذي تعاني منه أمي؟

– اهدئي يا زينب، لقد أبلغنا الطبيب أن الحالة مستقرّة، وأعطاها حقنة مهدئة؛ لتنام حتى لا تتعرض للانفعال، ابقي معها هنا حتى أذهب لأبي بالمستشفى.

***

وما إن رآها من بعيد، وهو يرتشف رشفة من فنجان القهوة، حتى وضع الفنجان بسرعة، وأخرج من جيبه بعض النقود تحت فنجان القهوة، وترجَّل مسرعًا حتى لحق بها، وقال:

- هل الخالة بخير؟

أجابته وهي تسرع الخطى: نعم، الحمد لله.

- إذًا، أين تذهبين الآن؟

- إلى المستشفى القابع به أبي.

- سآتي معك؛ لأوصلك.

- لا، شكرًا لك، لا داعِ لذلك.

- ليس من الأصول َأن أتركك، لا تقلقي سنستقل إحدى المواصلات العامة.

أوقفت سيرها، وأمعنت النظر قليلًا أمامها، حيث وجدت رقية تُقْبل عليها مهرولة وقد علمت توًّا بما حدث من إحدى جاراتها التي قابَلتها بالطريق.

ارتمت بحضنها، ولفت ذراعيها على خصر فاطمة، وقد حجبت غيوم عبراتها بحر عينيها الأسود، وكست وجه فاطمة علاماتُ الشفقة، وهَي تمسِّد على رأس رقية وتقرض شفتيها قبل أن تقول لها:

- الكل بخير يا حبيبتي، امكثي الآن مع زينب؛ لرعاية أمي، وسأعود بعد قليل من عند أبي.

- لا. سأذهب لأطمئن على أبي معك، ولكن انتظريني قليلًا، أصعد لأطمئن على أمي.

- إن كان ولا بد، فهيّا معي الآن، فأمي ما تزال نائمة. أريد أن أعود قبل إفاقتها.

- هيا لنستقل معًا حافلة من على الطريق.

انتبهتا- فقط- هنا لصوت سمير، الذي كان يتابعهما، ولم يتدخل بحديثهما.

نظرت رقية لفاطمة، والتي أومأت لها برأسها دليلًا على موافقتها أن يرافقهما سمير.

***

ظل سمير يرافق أسرة فاطمة هنا وهناك، حتى اليوم السابع لعزاء والدها، وهنا اجتمع خال فاطمة الطاعن بالسن المصاحب للعديد من الأمراض، والتي لم تمهله البقاءَ معهن أكثر من ذلك؛ فأخبرهن بأنه سوف يعاود أدراجه للمستشفى، الذي كان يتلقى به العلاج بمدينته الإسكندرية، بعد بقائه وحيدًا بدون زواج بعد أن طلَّق زوجته؛ لاستحالة العشرة بينهما، وهجرة ابنه الوحيد لأمريكا.

اجتمع مع الحاج سلامة والمعلم صبحي وسمير بناءً على طلب الأخير، والذي بدأ حديثه قائلًا:

- لا أستطيع أن أفي بحاجاتهم، وأباشر زيارة الخالة للطبيب أسبوعيًّا، وأنا لم أعقد عَلى فاطمة، وحضرتك ستعود للإسكندرية، فكيف أتركهن؟! وكيف ألبي احتياجاتهن؟! فما رأي حضراتكم؟!

***

- وما هو رأي خالك يا فاطمة؟

- وافق بحماسٍ مطلق؛ ورد على أمي، قائلًا: لم نرَ منه شرًّا قط، بل وجدناه شهمًا أصيلًا، وذلك بعد أن أخبرته بأن أبي- رحمة الله عليه- كان يريد أن يسافر لبلدته بالصعيد أولًا.

- وما رأيك أنتِ يا فاطمة؟

- لا أعرف يا ماجدة، أشعر بأن أعماق نفسي تتلاطم كالأمواج، ورياح الظروف تقصف بشراع إرادتي، ولا أخفي عليك سرًّا.. فهناك أمور مالية تتعلق بورشة أبي ولن يتم حسمها إلا بعد أن يتم إعلام الوراثة، وليس لنا من أحد يذهب للمحامي؛ فلم نتعود على مثل هذه الأمور، فلقد كان أبي كالباب الذي يسدُّ علينا متاعب الحياة، وما إن سقط هذا الباب حتى وجدنا رياح المتاعب تهبُّ علينا من كل جانب.

ولم تستطع استكمال المكالمة الهاتفية؛ فاستأذنت ماجدة بإغلاق الهاتف.

***

- لقد قلت لي إنه يوجد لديك حلًّا للضرائب الجزافية، التي فُرضت على الورشة، فما هو يا أستاذ سمير؟

قالها الحاج سلامة، وهو يجلس أمام سمير بالمطعم، فأجاب الأخير قائلًا:

- لقد ذهبت لأحد المحامين؛ لكي أسأله عن الرأي القانوني في هذا؛ فأجاب: بعد إعلام الوراثة، يقوم الورثة ببيع الورشة أو إيجارها لشخص آخر، والذي يقوم بدوره بتغيير نشاط الورشة، ونقلها باسمه.

- عظيم، سأنقل هذا الحل إلى عمك الحاج توفيق شريك الحاج فتحي.

- أخبره أنه يجب أن يوقِّع على بعض الأوراق؛ بما إنه شريك بالورشة.

- لا، ليس شريكًا رسميًّا، ولكنه كان شريكًا صوريًّا.

- كيف؟

- كان عمك الحاج توفيق يعمل عند والد عمك الحاجِ فتحي- رحمة الله عليهِ-، وبعد وفاة والده استحى أن يكون عاملًا عنده؛ فجعله شريكًا صوريًّا، ولم يخبر أحدًا بذلك إلا أنا والحاجة والدة فاطمة.

***

طلب الحاج سلامة مقابلة خال فاطمة وأمها، وقد لبَّيَا له طلبه، واستضافاه بالبيت وأخبرهما بما قاله سمير؛ فرفضت الأم اقتراح بيع الورشة، وأخبرتهما بأن لهم مالًا بالمصرف سيتم تسديد الضرائب من خلاله، واستطردت قائلة:

- أريد أن تبقى أبواب الورشة مفتوحة؛ فهناك بيوتٌ تُرزق منها.

تنهَّد في أسًى ناظرًا للأرض خجلًا ومواسيًا، قائلًا:

- ما لم يقله لك سيدتي الحاج فتحي- رحمة الله عليه- إنه ابْتاع بضاعة بكل ما يملك من مال، ووقّع شيكات باسمه لباقي المبلغ للتاجر على أقساط، ولم يستطع أن يفي بباقي الأقساط، ومنحه التاجر مهلةً أخيرةً كانت في أسبوع وفاته نفسه.. إمَّا الدفع أو الحبس، وهذا كان من أسباب الضغوط عليه في الفترة الأخيرة، ولم يخبر أحدًا بذلك إلا أنا والحاج توفيق بالطبع؛ لذا فالمبلغ المتبقي سنقوم بدفعه للتاجر من بيع الورشة.

هامَت على وجهها، وتركتهما وذهبت لحجرتها، ولم تتحدث لأحدٍ قط هذه الليلة، ولم تسمح لأحدٍ بدخول غرفتها، ولم تملك سوى عَبراتٍ سقَتْ بها بذور دعائها، وهي قانتة وساجدة لربِّها بمحرابها.

***

-٧-

دع الحُزنَ جانبًا

أصرَّت والدة فاطمة أَن يكون الزواج بالسكن القريب منها، وبعد أن مرت ثلاثة أشهر على وفاة أبيها وعقد قرانها، كان موعد الزفاف الذي أصرَّ عليه سمير، وكان مبررُه لذلك حتى يستطيع تدبير شئونهن وحمايتهن، ورضَخَت فاطمة لإلحاح خالها الذي كان يحادثها هاتفيًّا كلَّ يومين هي ووالدتها؛ حتى يسرعن بالزفاف معلِّلًا ذلك بأن الناس سيأكلوهن بألسنتهم كلما غدا سمير عليهن أو راح.

كانت ماجدة بحجرة فاطمة تحاول إقناعها بشراء فستان زفاف، لكنّ محاولاتها باءت بالفشل عندما قصَّت لها فاطمة عمَّا كانت ترجوه في مثل ذلكَ اليوم، قائلة:

- كان لي حلمٌ عتيق بارتدائي إياه يوم زفافي، ويلجُ أبي لحجرتي وسط تزيين صديقاتي لي، وأقف أمامه، وينظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدمي، وعيناه تلمع بالدموع، وتكسو وجهَه علاماتُ الفرح، ويتذكر أيام طفولتي، وأرتمي بحضنه فيمسح دموعي بكلتا يديه، ويطبع قُبلة على جبيني، ويتأبَّط ذراعي، ويقدمني لزوجي ويوصيه عليّ، بالله عليكِ أخبريني لمن أرتديه؟! ومن يحتضنني، ويبكي لفراقي؟ ومن يتغزل في فستاني، وزينتي، وتاجي؟ لمن أرتديه يا ماجدة لمن؟!

وانهارت باكية، وهي تجثو على الأرض، واضعةً يدها على فمها؛ حتى لا تَسمع أمُّها نحيبَها، وقوّست جزعها، فكأنها جنينٌ برحم أمه.

مالتْ عليها ماجدة، وجذبتها من يدها، وأجلستها على سريرها، وجلست أمامها، وقالت:

- ولكن يا فاطمة، أهانت أمُّك عليك؟ هل تريدين أن ترتفع نسبة السكر عليها؟ ألم يكفِ لها أن تشبث بها هذا المرض بعد وفاة أبيك؟! أتريدين للحزن أن يقبع بقلوب أخواتك عندما يجدن كبيرتَهن تغرق بالحزن، ولم تستجب لطوْق الفرح أن ينَجِّها؟ وما ذنب سمير أن يجد عروستَه حزينة بأجمل يوم في حياته؟!.

ثم ضمتها بحضنها، ومسّدت على شعرها بيدٍ حانية، ورفعت ذقنها بيدها، ونظرت لعينيها المتقرِّحتين من شدةً البكاء وسخونة العَبرات، وتساءلت:

- ولِمَ تبدئين حياتَك الوليدة بكلِّ هذا الحزن؟! ألم تعلمي أن الحزن يُوهن القلب ويسهِّل وُلوجَ الشيطان إلى النفس؟ ألا تحفظين دعاءَ حبيبك المصطفى- صلَّى الله عليه وسلم-: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»، وقولَه تعالى «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا». إنَّ الموت سُنة من سنن الله، أتَعترضين عليها حبيبتي!، لقَد منحك الله نعمةً، فكيف لك أن تشكريه عليها؟

- نعمة! فما هي إذًا؟

- نعمة الزواج، فهي سُنة أقرَّها الله تعالى على البشر، ولذا حرم الرِهبنة، ومن بعدها البنون فكيف لك ألا تشكري ربك «لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ»، انتبهي يا عزيزتي، فزوال النعمة بجحودها، يا فاطمة أنتَ تعلمين هذا وأكثر مني، أنسيتِ أنك من كنت تلقنينني الأدعية النبوية، وتشرحين لي ما خفي عني من أمورالدين!.

أنصتَتْ إليها بتمعُن دون غضاضة، وكأنها وجدت مبتغاها، أو سمعت صوتَ عقلها، ثم مدَّت يدها لتتناول كوب الماء القابع على الطاولة المجاورة للسرير، وشربت حتى ارتوت وتساقطت قطرات

الماء من ثغرها، وسكنت على مهدها، وتوارت عينها خلف جفنها، ودثَّرتها ماجدة بفراشها، وغطَّتْ في نوم عميق.

***

– أعلم أن ما سأقوله تحصيلُ حاصل يا بُني، فلم أرَ منك إلا كُلَّ خير، ولولا تحذير الأطباء لي وعدم استطاعة خال فاطمة للسفر؛ لكنا قمنا بزيارة والدتك، وتعرَّفنا عليها كما كان يريد عمك فتحي– رحمة الله عليه.

– لقد كانت تسرُّني تلك الزيارة بالفعل، ولكن أمي لم تعد تعرفني، ولا تعرف أحدًا بالمنزل إلا من تخدمها.

– شفاها الله وعفاها يا ولدي، فما أريد أن أقوله لك: أن تحرص على فاطمة، وأن تعاملها معاملة حسنة، واعلم أن ما مرَّت به من ظروف ليس هينًا عليها؛ فهي ابنتي التي غرستُ فيها حب البيت وطاعة الزوج، ولكن تلك إرادة الله أن تتزوج في تلك الظروف، فاعلم أنها ستكون حزينة بعض الشيء، نافرةً بعض الوقت، عصبية أحيانًا، ولكن كلَّ هذه الصفات ليست من صفاتها الأصيلة، فلكي تستمتع بصفاتها الأصيلة الطيبة؛ سيأخذ منك ذلك بعض الوَقت والجهد، وقوة التحمل.

– لا عليك يا خالة؛ فأنا أعلم ذلك جيدًا،لا تحملي همًّا، أعانك الله على زينب ورقية، أما فاطمة فغدًا ستضيء بيتي، ونخفف عنك حملَ مسؤلياتها.

– يا ولدي، هي من كانت تحملُ مسؤلياتنا؛ لقد كان والدها يقول عنها– دائمًا– العمودُ الفِقَري للبيت.

– إذا أردتِ أي شيءٍ يا خالة؛ فأنا ابنك أيضًا، اطلبي مني مباشرةً.

- ما أطلبه منك فقط أن تُسعد فاطمة، فما عدت يا بني أتحمل صدمات أخرى.

- لا تقلقي؛ فهي في عيني.

* * *

راقبتها القلوبُ قبل العيون، وهي تتأبط ذراعَ سمير، وتلِجُ من بوابة بيتها، وتترجَّل بالشارع حتى تصل البيت التي ستسكن به، وهي ترتدي فستانًا أبيضَ خاليًا من التطريز- وكان هذا شرطها إذا أرادوا أن ترتدي فستان زفاف- وحجابًا أبيضَ يُزين وجهها الذي اشرَأبَّ بحمرة الخجل، وافتَرَّ ثغرها عن ابتسامة وضَّاءة عفوية، واحتضنتها شمس الغروب، وطبعت على جبينها قُبلةً حارَّة من أشعتها الذهبية، مثلما كان يطبع والدها قُبلته عليها كلما غدا أو راح؛ وسكونُ الغروب يزفّهم مع حفيف الأشجار، وتغريد الطيور وهي تروح إلى أوكارها كما تروح فاطمة إلى عش الزوجية، وقاطع نغماتِ الطبيعة هذه بعضُ الزغاريد التي تبرَّعت بإصدارها بعضُ الجارات من الشرفات، وتناثر على جانبِي الطريق رجالُ الحي وبعض زوجاتهم، وكلما مرَّ العروسان عليهم علتْ أصواتهم بالتبريكات لهما؛ وأحيط العروسان بحلقة من صديقات فاطمة وبعض صديقات زينب، ولم يحضر أحدٌ من طرف سمير سوى المعلم صبحي، وأحد أصحاب سمير من بلدته، وهو الدكتور محمود.

وعندما وصلا إلى باب البناية، تهافت الجميع للسلام عليهما، والدعاء لهما، ووَلَجَ العروسان إلى حياتهما الوليدة.

* * *

-٨-

ولادةُ حياة

ترفع خصلات شعرها المتهدِّلة على وجهها، وهي تنهض من فراشها بحذر ؛حتى لا يستيقظ سمير؛ فهي تبغي تحضير الإفطار له قبل إيقاظه للذهاب لعمله في أول يوم بعد أجازة زواج استمرت أسبوعًا.. كان كفيلًا أن يبدِّل حالها، وتنقشع كل سُحب الحزن الذي كان يعتريها، وتسطعْ شمسُ الأمل والحب؛ لتنير حياتَها الوليدة. ولم يعكر صفوَ أيامها الفائتة سوى اكتشافها لشراهة سمير في شرب السجائر، وعدم حرصه على صلاة الفجر. هذا ما أخبرت به ماجدة، والتي جاءت لتزورها صباحًا بعد أن ذهب سمير للعمل، والتي نصحتها قائلة:

– هذه أمور من السهل أن تغيِّريها فيه، ولكن ستأخذ معك بعض الوقت.. قُرابة شهر أو شهرين، أو ربما سنتين؛ فاصطبري عليه، ولا تتعجلي النتيجة. هناك أمور يا فاطمة كثيرة كان يجب عليكِ أن تتعرفي عليها، وتقرئي عنها قبل الزواج، ولكن مازال العرض قائمًا، فلقد أتيت لك ببعض الكتب التي ستعينك على كيفية إدارة شئون البيت، وإذا واجهتك مشكلة؛ فما السبيل لحلها؟ وطريقة التعامل مع الزوج و....

قاطعتها فاطمة بشغفٍ مشيرةً بأصبعها على الكتاب الأخير، قائلة:

– أعطني مثالًا لحين القراءة في تلك الكتب.

– في هذا الكتاب، يتم شرح التعامل مع الزوج في بعض الأمور كالحالة الوجدانية والشعورية، وكيف يفكر الرجل، فمثلًا: يوصي

الكاتب أن الرجل عندما تريدينه أن يكفَّ عن فعلٍ سيء؛ فلا تتعاملي معه كالابن الذي تريدين منه كلمة «حاضر» والتنفيذ في حينه، وكذلك عندما تطلبين منه شيئًا، فتخيري كلماتٍ تجعل بالصدر انشراحًا؛ اجعليه يرهفُ السمع لك دائمًا.

أمسكت بالكتاب، واحتضنته قائلةً:

- سأبدأ به أولًا، ولن أتركه حتى أستوعبَه بكل حواسي.

- لقد تحدد معاد سفري أنا وفوزي بعد عشرين يومًا، وبالتالي سيكون زفافي بعد أسبوعين.

انتصبت فاطمة بانزعاج، وهي تنظر لها، وتمدُّ قدمها لتجلس بجوارها على أريكة الصالون المذهب الذي ابتاعه سمير مع حجرة النوم، واستكملت الأم بعض الملابس والاحتياجات الخاصة لها فقط؛ بناءً على طلب سمير الذي اكتفى بما تَحْويه شقتُه من أجهزةٍ كهربائية كان يستخدمها قبل الزواج، واعدًا أمها بأنه سيجلبُ لها كلَّ جديد، ولكن بعد أن تنسلخ فاطمة من حالة الحزن التي كانت عليها، وتختار أمتعتها بفرحة كفرحة كلِّ بنتٍ وهي تبني بيتها.

- لم يخلد ببالي أننا نبتعد عن بعضنا يا ماجدة.

قالتها، وهي بين ذراعي ماجدة السمينتين، ومنكبيها العريضين، فكانت نحافة فاطمة كفيلة بأن تغرق بحضن ماجدة.

- لا تقلقي حبيبتي، فكما قلت لك من قبل سنتحدث سويًّا عبْر الشبكة العنكبوتية، وخاصة بعد أن تخرجت زينب من الكلية، ومكثت بالبيت طوال اليوم؛ فتستطيعين أن تتحدثي معي بأي وقت تشائين عبر بريدها الإليكتروني، الذي سترسل لي من خلاله أعمال الترجمة التي بيننا.

- هل ستكمل معك زينبُ العمل؟

- نعم حبيبتي، والتعامل المادي سيكون عن طريق الحوالات البريدية.

شردت لثوانٍ، ثم قالت: سأقصُّ عليك يا ماجدة أمنيةً لي قديمة، احتفظت بها بينَ خلجات نفسي، ولا أعرف لِمَ ظهرت الآن؟!

لم تقاطعها ماجدة، فتركتها تُدلي بما تحويه خلجاتها.

- كنت أود أن أكون شاعرةً، وتصدر لي دواوين، وأن أكون صاحبة قلم مميز، وأديبة كبيرة تكتب بالمجلات والصحف.

- وما كان يمنعك من ذلك؟

- كنت لا أريد أن يشغلني شيء عن خدمة أمي، ومتطلبات أخواتي.

- فأنت الآن تستطيعين؛ حادثي سميرَ بهذا الموضوع.

- إن شاء الله، ولكن بالطبع ليس الآن.

* * *

بدأت تلاحظ أن ما كان عليه سمير من اعتدال بالمصاريف تحوّل لبخل، وأنَّ ما كان عليه من حبٍّ تحول لشحٍّ بالعواطف، وما كان عليه من وداعةٍ تحوَّل لعواصف يومية، ولا تدري لِمَ كلُّ هذا التحول؟ والذي نقلته لماجدة عبر رسائل البريد الإليكتروني؛ فقالت:

- ربما يكون لتأخر الحمل.

ونصحتها بالذهاب إلى الطبيب، وأن تقصَّ ذلك لوالدتها.

- لا، لن أستطيع البوح لأمي بذلك؛ لأن الطبيب حذَّرنا من ذي قبل بألا تتعرض لأي انفعال.

قرأت ماجدة الرسالة، واختفت لحظات، ثم عاودت الكتابة، قائلة:

- عندي حلٌّ لك.. ما رأيك أن تذهبي بصحبة أمي، لقد أخبرتها الآن عندما اختفيت عنك، وهي رحبت بذلك.

- تمام، سأذهب لها ونتفق على التفاصيل. هذا حلٌّ جيد.

***

- لماذا لم تأخذني- حتى الآن- لقريتك؟ أريدُ أن أتعرف على والدتك وخالتك زوجة المعلم صبحي.

قالتها، وهما يتناولان العَشاء.

تظاهرَ بمتابعة الفيلم العربي، الذي يعرض أمامه على شاشة التلفاز. كرَّرت سؤالها مرة أخرى، وهي تدير رأسَه بيدها.

- سوف تأتين معي في وقت آخر، ولكنني سأذهب غدًا بمفردي.

- أنت في كلِّ مرة تسافر فيها تقول لي ذلك.

اخْتلقَ الشجار، وصدح بصوته؛ فانتفضت ذعرًا لما ظهر عليه من توتر، ودلَفَ إلى حجرة النوم، وصفع الباب خلفه.

باتت ليلتها باكيةً شاردةً حتى غلبها النوم على أريكة الصالون، ولم تنتبه إلا على صوت إغلاق باب الشقة؛ فأسرعت عليه ملتقطةً بيدها خمارًا معلّقًا بجوار باب الشقة، ارتدته على عجَل، ونادت سمير وهو يهبط الدرج مسرعًا، لم يُجب عليها؛ فاستطردت قائلة:

- سأذهب مع أمي للطبيب.

أشار بيده في الهواء، قائلًا:

- حسنًا.. امكثي هناك حتى أعود، وأصطحبك للبيت.

أدلفت لشقتها، وهي تتوجس خيفةً، وحدَّثت نفسها، قائلة: هذه أول مرة يطلب مني أن أمكث عند أمي، حتى يأتي ويصطحبني لبيتنا!

***

قبل أن تذهب لأمها قررت أن تذهب لوالدة ماجدة؛ لتتفق معها على كيفية الذهاب للطبيبة، والتى فاجأتها بأن الطبيبة هي ابنة إحدى صديقاتها، واقترحت عليها أن تتصل بها، وتستشيرها بدلًا من الذهاب للعيادة ليلًا.

رحَّبت فاطمة بتلك الفكرة؛ حيث إنها لا تستطيع أن تخرج ليلًا، وحتمًا ستعرف أمها سببَ خروجها.

أشارت عليها الطبيبةُ بعمل بعض التحاليل للاطمئنان عليها، وإيفاد التحاليل مع والدة ماجدة طالما أن الخروج لها مستحيل.

عادت فاطمة لمنزلها مجددًا محاولة أن تجد أي مبلغ مالي بالشقة؛ لتُجري التحاليل؛ لأن سمير سافر بدون أن يترك لها مصروفًا، دلفت إلى حجرة نومها تبحث بين أدراج أثاثها، أُسقط في يدها عندما لم تجد مالًا، ثم استلقت على السرير تفكر في أمرها. وأثناء ذلك، تذكرت أن هناك رفًّا بخزانة الملابس الخاصة بـ «سمير» لم تبحث فيه. أحضرت سلمًا خشبيًّا حيث كان هذا الرفُّ أعلى منها بكثير، فكان سمير هو من يتولى ترتيبه. وقفت عليه لتزيح ما فيه من متعلقات وأوراق، سقط بعضها على الأرض، فهبطت لتعيدهم إلى الرف، فإذا بها تجد بعض النقود داخل إحدى الدفاتر، ومدوّن بداخل الدفتر ما كان يقوم به سمير كل يوم، فهنا كتب.. «إنه في يوم الرابع من فبراير ١٩٩٨ تمت مقابلة الحاج سلامة... إنه في يوم الخامس من أبريل ١٩٩٨ تم إجراء

عملية اللوز لسميرة... إنه في يوم الثلاثين من مايو ١٩٩٨ تم زفافي على فاطمة... إنه في يوم....».

كان الذهول حليفَها، والجنون يعصفُ بأفكارها في محاولة منها لمعرفة من تكون سميرة هذه!، ثم أعادت كل شيء على ما كان عليه، وأسرعت الخُطا تجاه منزل أمها، وحمدت الله أنها وجدتها نائمة، وزينب مشغولة بالمطبخ. ألقت عليها السلامَ، وهرولت لحجرة زينب ورقية؛ حيث كانت الأخيرة غارقةً في سُبات عميق. جلست أمام الحاسوب، وبعد أن فتحت البريد الإليكتروني الخاص بزينب، أرسلت رسالة لماجدة لتخبرها عمّا حدث. وكانت الثواني السابقة لردّ ماجدة عليها كالساعات، وأعلن صندوقُ الوارد عن استقبال رسالةٍ جديدة. وبسرعة خاطفة، فتحت الرسالة، وكان فحواها.. «لعلّ سميرة تكون إحدى قريباته وهو يساعدها، انتظري حتى يعود ولا تسأليه عنها، سيترك الموضوع ويتشبث بأنك عبثْتِ بأشيائه».

فتحت (الشات)، وبدأت تكتب لها:

– ولِمَ لمْ يخبرني!؟

– اهدئي يا فاطمة، من الممكن أن يكون قد قام بهذا الفعل؛ لوجه الله.

– لا أظنه كذلك، ولكنني سأنتظر.

ثم قامت مسرعة تتصل بوالدة ماجدة؛ لتعتذر لها عن إجراء التحاليل، وسترجئها لوقت آخر.

* * *

-٩-

فمَنْ لليتيم..؟!

قبل أن يأتي سمير ليعيدها لبيتهما، قَضته فاطمةُ أسبوعًا كاملًا عند أمها، استطاعت فيه أن تتعلم كثيرًا على الحاسوب بمساعدة زينب، وأصبحت تمتلك بريدًا إليكترونيًّا تحادث ماجدة من خلاله.

* * *

كان الصمت ثالثَهما أثناء تناولهما الغداء، لم تتحمل فاطمة الصمتَ أكثرَ من ذلك؛ ففارَتْ مشاعرُها بكلمات أطلقتها كالسهام، ولم تفلح نصائحُ ماجدة لها بعدم التحدث معه مباشرة في موضوع سميرة؛ حيث باغتته قائلةً:

– من تكون سميرةُ هذه يا سمير!؟

أوقف لكَّه للطعام الذي كان في فمه، وتناول كوبَ الماء الذي أمامه، وتجرعه كاملًا، ووضعه بعصبية على طاولة الطعام، ثم قام من مجلسه؛ ليجلس على الأريكة القابعة أمام التلفاز، وأشعل سيجارة، وأخذ ينفثُ فيها بعصبية.

كانت تتابعُه بنظراتها الباحثة عن إجابةٍ لسؤالها، ثم وقفت حائلًا بينه وبين التلفاز، وهي تلف يديها أمام صدرها، قائلة:

– من تكون سميرة؟! ولِمَ تركتني أسبوعًا كاملًا عند أمي؟ أتعاقبني حتى لا أطلب منك السفر لبلدتك؟ أشعر أن هذا الأمر له علاقة بسميرة هذه. ثم صدح صوتُها عاليًا، وهي تقول: أخبرني من تكون سميرة هذه؟

قام من مجلسه والشرر يتطاير من عينيه، وأمسك بمرفق يدها، قائلًا:

– أتعبثين بأشيائي يا فاطمة من ورائي، أهذه تربيتك؟

قالت وهي تتأوَّه من شدة ضغط يده عليها:

– لا تتكلم عن تربيتي؛ فأنت أعلم الناس بها وبمن ربَّوْني، وإلا لم تطمئن لي، وتتركني أيامًا وتسافر.

ضحك مستهزئًا، وقال:

– ونعمَ التربية التي تجعلك تعبثين من ورائي بأشيائي!.

تحاول إفلات يدِها منه، وقد نجحت بذلك، وتراجعت خطوتين للوراء، وهي تقول:

– لا تترك لُبَّ الموضوع وتتمسك بالقشور؛ وإن لم يكن الأمر مريبًا؛ فلمَ فعلت فيّ كلَّ هذا الآن؟

– نعم، مريب ولن أجيب لك عن أيّة أسئلة.

انصرف من أمامها قاصدًا حجرة النوم، ثم عاد أدراجَه، وأشار إليها بسبابته، وقال مهددًا:

– إياك أن تتحدثي في هذا الموضوع مرةً أخرى، أو تحدّثي أحدًا به. ثم ضحك بسخرية، وقال: فمن تحدثين إذًا؟ أمك إذا حادثتِهَا فستموت فيها، وتعيشين أنت بذنبها طيلة عمرك!، خالك الذي لم يكلّف نفسه أن يحضر زفافك!، ليس لك أحدٌ غيري؛ فاهدئي ولا تثيري المشكلات، ولا تتحدثي فيما لا يعنيك حتى لا تجدي مني ما لا يرضيك. ثم مضى، وأوصد باب الغرفة خلفه.

رمقتْه بعين السخط، وانعقد لسانها، وذرفت دموعها زخاتٍ زخاتٍ، وارتجف قلبُها رعبًا؛ ونزفت الحروف على أوراقها، وهي ترثي نفسها قائلة:

من لي بطيفك يا أبي؟

من لي ببسمتك الوسيعة؟
من لي بدفء يديك فوق أناملي..
فوق الجبين؟
من لي بألحان المساء،
وأنت تخطو صوب غرفتنا
تدثرنا بأدعية التوكل
تنثرها بصوتك بعدما
تلقي علينا نظرةً فيها وداعٌ للصباح؟
الآن يا أبتِ وحيدة!!
ما عدت إلا الهيكل الجسدي
قد هدَّته أوهام شريدة
قد فارقته الروحُ تبحث
في سراب عن حياةٍ
وتطوفُ أرجاءَ العوالم
علَّها تلقاك يومًا
عبْرَ طيفٍ ربما يأتي إلينا
في جموعٍ القادمين.

لم تشعر كمْ مرَّ عليها من الوقت، إلا أن أذان الفجر طافَ بقلبها، وأودع به الأمانَ؛ فقامت وتوضأت، وخرَّت ساجدة لربها، وتضرعت له.

❋ ❋ ❋

– اصبري يا فاطمة؛ فلقد كان سؤالك له مباغتًا، ولم يجد بدًّا من الهروب من الإجابة سوى ردة الفعل هذه.

– لكن يا ماجدة، إنْ كان الأمرُ ليس به ريبة؛ لمَ فعل كلَّ هذا!؟.

– كما قلت لك، اصبري؛ فالأيام كفيلة أن توضح لنا الأمر، دعك من هذا، وأرسلي لي ما سطَّرْته من أبيات الشعر.

– من الواضح أن الكتابة ستكون سُلوتي بأيامي القادمة؛ فلم أعد أطيقُ الجلوسَ معه، والسهاد صار حليفَ جفوني. وكان يومي معه أجهِّز له إفطاره على الطاولة، وأمكث بالشرفة حتى يذهب لعمله، ثم أنام وأستيقظ قبيل مجيئه من العمل؛ لأضع له الغداء، وأمكث بحجرة الصالون أكتب وأكتب حتى اليوم التالي؛ وهذا هو حالنا طيلة الأسبوعين الماضيين.

– هذه ليست حياةٌ يا فاطمة؛ لا تضغطي على أعصابك هكذا، وإن جاهد سمير في يوم ليرضيك؛ فلا تتمنَّعي، ربما يراجع نفسه الأيام القادمة، ويشعر بمدى الجرم الذي فعله؛ ولكن طبيعة معظم الرجال لا يستطيعون أن يعترفوا بغلطتهم مباشرةً؛ وبالتالي لا يستطيعون أن يتفوَّهوا بكلمة «أنا آسف».

– هل تريدين مني أن أهضم إساءتي وابتسم في وجهه، وأسامحه!؟

– بالطبع لا؛ ولكن لا توصدي باب الصلح؛ عسى أن يكون سببًا في معرفتك للحقيقة.

– سأغلق الآن؛ لأني ألمح أمي قادمة إليّ.

أغلقتْ زرَّ تشغيل جهاز الحاسوب، ونهضت لاستقبال أمها، والتي سألتها وهي تضم كتفيها بذراعيها، قائلة:

– ما الذي أحلَّ بك يا حبيبتي؟ ألاحظ شحوبَ وجهك، وانطفاءَ بريق عينيك. لا تحدثيني عن تفاصيلَ، ولكن أخبريني– فقط– هل حدث بينك وبين سمير خلافٌ؟

رانَ عليها الصمتُ وهي تقرض شفتَها السفلية، وتصارع عَبراتها التي أسرعت لتطلَّ من بين أهدابها وهي تنظر لأمها، وما إن مدَّت يديها لترتمي بحضن أمها حتى هوَتْ أرضًا.

***

– قلت لك مرارًا وتكرارًا، لا بد من مصارحتها يا سمير.

– أنت تعلم كيف سيصير الوضع إن صارحتُها.

– أنا لست راضيًا عن هذا يا سمير، ولولا وصية أمك– رحمها الله– عليك؛ لقطعت صلتي بك.

– أنت تعلم أني لا أثق بأحد غيرك يا دكتور محمود، ولا أأتمن أحدًا على أسراري ومالي؛ غيرك.

– لذا أرجو منك يا سمير أن تتقبل نصيحتي بأن تصارحها؛ حتى تعيش بسعادة بدلًا من هذه الحياة التي تعيشها الآن. أعلم بأنك عنيد، ولكن هذه الأمور لا تُحلّ بالعند.

– أعدُك بذلك، وسأتخير الوقت المناسب لأصارحها. سأغلق الهاتف الآن؛ لأن ميعاد توقيع الانصراف قد حان.

***

– ومتى حدث هذا يا زينب؟

– منذ ساعتين، بعدما أنهت الحديث معك.

– وهل أخبرتِ سميرَ بهذا الخبر.

– لا، فهو مازال بالعمل، ولا نعرف رقم هاتف العمل.

– عندما يعود لا بد أن تخبرْنه ضرورة.

– بالتأكيد ستذهب رقيةَ؛ لتنتظره على باب البناية وقت عودته من العمل.

***

-١٠-

المُراوِغ

تذكرت كلمات أمها.. «الابتلاء على قدر الإيمان والتحمل؛ فأعمال الإنسان التعبدية قد لاتصل به لأعلى درجات الجنة؛ فيأتي الابتلاء ليزيد من درجات المرء إذا صبر وحمدَ ربَّه ولم يشكُ ربه»، «مع كل نعمة قد تأتي ابتلاءات لتختبر قوة إيماننا وثقتنا بالله». تذكرت ذلك وهي تتوسد عَبراتها التي حررتها من حبسها بعد أن طلبت منهن أن تختلي بنفسها، بعدما علمت من الطبيب الذي جاهدَ؛ لإفاقتها من إغمائها أن هناك من يسكن أحشاءها.

وضعت يدها على بطنها، وهي تناجي ربها ألا يجعل ما في بطنها مثل أبيه، وأن يجعله مثلَ أبيها، ويبعد عنه شياطين الإنس والجن. وأثناء ذلك، تناهَى لسمعها صوتُ سمير بالخارج وهو يلقي السلام على أمها، والتي أوصلته لحجرتها، وقد همَّت بإزاحة آثار هطول عَبراتها، واعتدلت بجلستها على فراشها، وقد ضمَّت قدمها لصدرها مشبِّكةً أصابع يديها على ركبتيها، ولم ترفع نظرها لسمير حينما ألقى عليها السلام، وهو يقف أمامها على باب الحجرة، وبخلفه تقف أمُّها مشجعة إياه أن يلِجَ الحجرة، وما إن وضع قدمَه بالحجرة؛ حتى مدّت الأم يدَها، وأوصدت باب الحجرة.

جلس سمير على طرف السرير الأيسر أمام فاطمة، التي أشاحَت بوجهها عنه ناظرةً تجاه جانبها الأيمن. كان الصمت حديثَهما الخفي؛ فكلٌّ منهما يخبِّئ ما يجيش بصدره، كلٌّ منهما يسمع هُتافَ ثورة أفكاره ومشاعره، وقبل اشتباك الثورات هذه، فَضَّها سميرُ قائلًا- بعد أن تنحنح، وكأنه يقدم نفسه للحديث-:

– مبارك يا فاطمة؟ أخبريني الآن بمَ تحبين أن تسمي الولد؟
نظرت له بتحدٍّ قائلة:
– عندما تخبرني أنتَ من تكون سميرة هذه!؟ وكيف طوَّعت لك نفسك أن تفعل بي ما فعلت؟
– أنت من قُدْتني لهذا.
تُمعن النظرَ به، وهو يستكمل:
– لا أحب أن يعبث أحدٌ بما أواريه، لا تسألي عن أشياء إن تُبدَ لك تسوؤك.
– هل أَنا أحد، أنا زوجتك.. نصفُك الآخر الذي يجب أن تعرف عنك كل شيء.
– تعرفين عني منذ ارتباطنا فقط.
– وهل سميرة كانت قبلٍ ارتباطنا، لقد كتبت أنت عنها في دفتر يومياتك قبل زفافنا بشهر، إذًا فلتخبرني يا سمير.
– وماذا قرأت أيضًا.
– لتعْلم، لم أستطع أكمل قراءة باقي اليوميات؛ لأنني شعرت بأنها أمانة. ولتعلم- أيضًا- أني لم أعبث بأشيائك لمجرد العبث، ولكنك لم تترك لي نقودًا، وكنت أريد أن أجري تحاليلَ.
– تحاليل! لماذا لم تخبريني؟! أتخبئين عليَّ!؟
– لا أخبّئ عليك شيئًا، ولكن عندما وجدت تعاملك معي تغيَّر، وأصبحت أكثر عصبية وأقل ودًّا؛ توقعت أن ذلك سبَبه عدمُ الحمل؛ فهمَمْت بإجراء التحاليل؛ لأطمئن.
– إذًا، لقد ذهبت من ورائي للطبيب.
– لا، لم أذهب، بل تحدثت مع طبيبة بالهاتف، وأوصتني بعمل بعض التحاليل.

- إذًا، فكانت نيتُك أن تذهبي للمعمل دون إذنٍ مني.

- كنت أنوي أن أخبرك بعد مجيئك من السفر.

- وهل الاستئذان بعد العمل أم قبله، يا فاطمة!؟ وماذا فعلت أيضًا دون استئذان مني؟

- ما هذا الهراء الذي تتفوَّه به؟! أنا أكررها لك، لقد أحسن والداي تربيتي، وأنت تعلم ذلك.

- إذًا، دعي ذلك، وهيا إلى مسكننا؛ لأنني بحاجة إلى الراحة، والخلود إلى النوم.

- لن أذهب معك؛ حتى تخبرني عن سميرة.

- سأخبرك بها في بيتنا، هيا ارتدي ملابسك.

وهنا، طرقت الأمُّ البابَ قائلة:

- هيا، تفضل يا سمير؛ فالطعام جاهز.

أجابها من وراء الباب:

- شكرًا يا خالة، سنأكل في بيتنا.

وأشار إليها بسرعة بمغادرة الفراش، وهي تنظر بعينيه معلنةً رفضها للعودة معه للمنزل، لولا إنه وعدها بأن يخبرها عن سميرة ببيته، فكان هذا سببًا كافيًا بأن تذهب معه للمنزل، رغم عزمها على ألا تعود للمنزل إلا إذا أحسن معاملتها وأخبرها عن سميرة.

وما إن وضعت قدمَها على الأرض، حتى كادت تهوي أرضًا، ولكنه حملها بين يديه وأراحها على فراشها، وحاول إفاقتها، ولكن باءت محاولته بالفشل؛ فاضطُر أن يحضر الطبيبَ الذي أوصاها بالراحة التامة، وعدم الحركة إطلاقًا، وأوصى لها ببرنامج غذائي يومي؛ لأنها تعاني من سوء تغذية، وانخفاض بضغط الدم.

اقترحت الأمُّ على سمير أن تمكث سميرة معها؛ حتى تستعيد صحتها، وحتى لا يتضرر الجنين؛ وأن يحضر سمير كلَّ يوم ليتناول معهم الغداء، ويمضي إلى بيته ليلًا.

وافق سمير على ذلك، ولكنه لم ينفذ أيًّا من هذه الاتفاقيات. وكان كلَّ يوم يتعلل بحُجة غير الأخرى؛ حتى أتم أسبوعًا كاملًا وهو لايزال تاركًا فاطمة عند أمها؛ مما اضطرها أن تتصل به في عمله بعد أن ترك لهم رقم هاتفه هناك بعد إلحاح وإصرار شديدَيْن من أمها؛ حتى تستطيع أن تتصل به إذا حدث مكروه لفاطمة، التي أدارت قُرصَ الهاتف ببطء وتردد، ولكن أخيرًا حسمت أمرها، وها هو قد أجاب على اتصالها، وبعد إلقاء السلام:

– لماذا لم تنفذ ما اتفقت عليه مع أمي؟

– لقد كنت مشغولًا قليلًا بالعمل.

– لم تقل لك.. احضر في أوقات العمل!، فقط قالت: احضر عند الغداء.

– بالفعل هي قالت ذلك؛ لكنني كنت أريد أن أجلس ببيتي، وأستريح على فراشي بعد عناء العمل.

قالت بخفوت:

– هذه حُجة؛ كي لا أسألك عن سميرة، وقد وقفت الظروف بصالحك هذه المرة.

قال وهو يزمجر:

– تكرِّرينها مرة أخرى؟! ألم تملِّي من هذا الموضوع؟

– فلنرجئه الآن، ولكن لمَ لمْ تأتِ وتترك لي مالًا؟

– لمَ؟ وهل والدتك تريد مالًا مقابل مكوثك عندها؟

– أجننت! ماذا تقول؟ ولكنني تحت قوامتك، أليس كذلك!؟

ومن البديهي أن تصرف عليّ حتى وإن كنت في بيت والدي، وخاصة أنك تعرف أن ما بقي من مبلغ بيع الورشة بعد سداد الديون وُضِع بالمصرف الإسلامي، وأمي تنفق على أخواتي من عائده.

- أنت لك الحق في هذا، ألست بوارثة مثلهن تمامًا؟

- ماذا تقول!؟ ألم تعلم بأنني أَخذت أكثرَ من حقي لتجهيزي؟

- أنت لم تأتِ بالكثير، ووفرتُ عليكن، ولم أطالب بالمزيد من....

قاطعتْهُ قائلةً بحزم:

- تراوغ كعادتك، وتمسك بالقشور وتترك لُبَّ الموضوع. واستطردت قائلة: سأنتظرك اليوم.

- وهل أوْحَشتك؟

- بعد كل هذا! بالطبع لا، ولكن لتترك لي مالًا.

- إذا أتيت؛ فستعودين للبيت معي، ما رأيك؟

-أنت تعلم أنني مازلت مريضة لا أستطيع خدمة نفسي وخدمتك.

- إذًا؛ فلن أحضر.

- تعالَ، ولن أفتح معك موضوع سميرة.

- ما رأيك يا عزيزتي أن نرجئ هذا الموضوع بعد ثلاثة أشهر من الآن؟

- ولِمَ ثلاثة أشهر؟

تساءلت ماجدة باستنكار حينما أخبرتها فاطمة، والتى أجابتها قائلة:

- لم يُجب عليّ، وتحجج بأن المدير قادم عليه، وأغلق الهاتف.

- علينا أن ننتظر الثلاثة أشهر، ولكن عليك الاهتمام بصحتك

وصحة من في بطنك؛ فاهتمي بطعامك وشرابك، واتركي ما يُعكر صفو حياتك للأيام، وامضي في طريقك ولا تلتفتي؛ فإني أزفُّ إليك خبرًا سيُبهج حياتك، ويحقق لك أمنيتك العتيقة، لقد عرضت ما سطّرته من أشعار وخواطر على بعض المجلات الأدبية والمؤسسات الإعلامية هنا؛ فأصابهم الانبهارُ بما تكتبين، ويريدون المزيد من كتاباتك لعرضها على القراء أسبوعيًّا مقابل مبلغٍ من المال سيصلك عن طريق المصرف إذا كان لك حساب به.

لم ترَ فاطمة أزرارَ لوحة مفاتيح الحاسوب من شبورة عَبراتها التي تجمعت بحدقتيها قبل أن تهطل بمجرى وجنتيها، ولم تتحكم بارتجاف يدها التي جاهدت لتكتب ردًّا لماجدة قائلة: لا أعرف كيف أوصف لك شعوري وامتناني تجاهك وتجاه ما عوضني به ربي؛ لأسترد ثقتي بنفسي، وأعيد بناء كرامتي أمام نفسي؛ نفسي التي طالما حدثتني أن أكون أقوى من ذلك وأصلب، وألا أستسلم للأمر الواقع. الواقع الذي فرضه إنسانٌ يبدو أنه احتال علينا، ونحن تعاملنا معه بحسن نية. النية التي يجب على المرء أن يكون يقظًا وهو يتعامل بها مع الآخرين. الآخرون الذين لا نلقي عليهم الذنب كله، ولكننا نتحمل جزءًا من هذا الذنب أيضًا؛ فالمؤمن كيِّس فطِن، وما نجح النصّاب إلا بطمع المجني عليه، لذا فإنني قررت أن أَستغل فترة وجودي هنا وأمام الحاسوب؛ لأعيد بناء شخصيتي من خلال القراءة والبحث عن تجارب وخبرات الآخرين بالحياة، وقراءة سيَرالعلماء، ولن أتقوقع مرةً أخرى.

- أحسنت يا حبيبتي؛ فهذا هو أفضل حلٍّ عملي لمواجهة المشكلات.

«فمن رحم المعاناة يولد الإبداع».

* * *

-١١-

تبدُّدُ الأحوال..!!

مرت ثلاثةُ أشهر على وجود فاطمة بمنزل أمها، وسميرُ لم ينفق عليها سوى إعطائها مبلغًا زهيدًا حفاظًا على ماء الوجه أمام حماته كلما جاء لها بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وكان حريصًا أن يجلس معهن بالصالة؛ حتى لا ينفرد بفاطمة، فتوَبِّخه على هذا المبلغ، أو تسأله عن سميرة.

وكانت فاطمة تمدح فيه أمام أمها؛ حتى لا تشعر بثمَّة مشكلة بينهما؛ فتتعرض لأزمة صحية، وكانت تعلل أمامهن عدم حضوره لها بأنه يشعر بالخجل تجاه زينب ورقية، وأنه سيُحدّ من راحتهما.

***

– أشعر بأن هناك ثمة شيء بين أختك وزوجها.

قالتها بخفوت، وهي تقف مع زينب بالمطبخ، والتي أجابت بدورها، وهي تقلب طَنْجر الحِساء على الموقد:

– ألاحظ ذلك بالفعل يا أمي منذ أمد، لكني آثرت عدم الاكتراث بذلك؛ حتى لا أضعها في موضع تبرير طيلة الوقت لتصرفات سمير، أو أن تكن خجلةً أمامنا، ولكنني ألاحظ اهتمامها هذه الأيام، واعتكافَها على القراءة والمواظبة على الكتابة طيلة أوقات اليوم، وكأن القدر أراد لها أن تستريح قليلًا قبل عناء الولادة وما يتْبعها من مشقة.

– أمسكت بحبَّات البطاطس؛ لتقطعها وهي تقول:

– إن العام الأول من الزواج يا زينب لا بدَّ أن يكون به الكثيرُ من الشدّ والجذب؛ نظرًا لاختلاف طبائع الزوجين. ولكن إذا لم يحْسما

أمورَهما، ويضعا حلولًا وخُططًا لحياتهما وتركوها؛ فسينفث فيها الشيطان حتى تكبر، وتصبح الحبةُ جبلًا.. من الصعب تفتيتُه.

أقبلت بجوارها، ودَنت من أذنها، وقالت بخفوت:

- ولِمَ لمْ تتدخلي يا أمي لحل مشكلاتهما قبل أن تتفاقم؟

تنهدت بأسًى، وقالت:

- إذا حدث وأهان أحدُ الطرفين الآخر، ثم جلسا ليتصافيَا، واعتذر لتلك الإهانة؛ فسيسامحه الآخر، ويمنحه فرصةً بأن يصلح من أخلاقه التي تتفلت منه عند الغضب، ولكن إذا تدخل طرف ثالث فلن يستطيعا أن يُسامحا بعضهما، أو بالأحرى فإنه سيشعر بأن كرامته ذُبحت أمام الطرف الثالث. فلن تكون هناك فرصةً للإصلاح، ويحلُّ العناد محل التوافق.

- فهل نتركها هكذا يا أمي؟

قالتها وعيناها تذرفان الدموع من البصل، وكأنه يبارزها برائحته النفَّاذة كلما همَّت بتشريحه.

- لا أستطيع أن أحادثها بأي شيء وهي بهذه الحالة، فأنت تعلمين كم هي مُرهفة الحس، ومن الممكن أن تنتكس صحتُها بعد أن نجحت في استردادها مرةً أخرى.

اقتحمت رقيةُ عليهما المطبخ، وبثورتها المعهودة، قالت:

- إنني جائعة يا بشر؛ هل أتى رمضان وأنا نائمة؟

ضحكت أمها قائلة:

- بل جاء العيد؛ فلتذهبي إذًا لتنظيف البيت؛ فمنذ استيقاظك وإفطارك وأنت قابعة أمام الحاسوب، ولم ترتبي البيت.

- لا، لم أعُد بحاجة إلى الطعام. وهمهمت موبخة نفسها: ما الذي قادني إلى هنا؟

- هيا يا رقية، نفِّذي ما قالته أمي. وبعد انتهائك، سنتناول- جميعًا- الغداء.

قطع حديثَهن دقاتُ رنين الهاتف، الذي جرت عليه رقية، والتي أخبرت أمها بأن سمير سيأتي؛ ليتناول الغداء معهن.

***

كانت المؤسسة العربية للآداب والفنون ترسل لفاطمة راتبها عما تقدمه أسبوعيًّا بإحدى مجلاتها الأدبية الأسبوعية من خواطر وأشعار عبر الحساب الخاص بوالدتها بالمصرف الإسلامي، والذي كان بدوره كفيلًا بأن تساعد به بالبيت بعد إصرار وإلحاح منها كي توافق أمها على ذلك.

***

يلتف الجميع حول طاولة الطعام وسط ترحيب من أم فاطمة لسمير- والذي اخترق عادته بحضوره يومًا مخالفًا ليوم الجمعة- وعين فاطمة السائلة عن سبب حضوره المفاجئ، وزيغ عين زينب بين أمها وفاطمة التي لم تلق بالًا لوجوده، وأخذت تحادث رقية وتتبادلا القفشات السريعة، والتي كانت تجيدها رقية- فاكهة البيت- كما كان يقول عنها أبوها.

ولكن لاحظت أمها ضيقَ سمير، الذي فهم تعمد فاطمة تجاهله؛ فحثَّت رقية أن تكفَّ عن هذا الهراء؛ حيث بدا لها أن هناك ثمة ثورة خامدة تطل من وراء جفنيهما كلما اختلس أحدهما نظرةً للآخر.

قاطع سميرُ صمتَ عيونهما وهو يقطع قطعة اللحم التي أمامه، وقال وهو يتناول قطعة اللحم، وينظر لفاطمة:

– سنذهب سويًّا بعد قليل لزيارة طبيب النساء والتوليد؛ للاطمئنان على الجنين.

رمقته باستياء؛ فأردف قائلًا:

– ولنطمئن على صحة والدته، بالطبع.

ابتلعت فاطمة طعامَها كما ابتلعت كلامه الذي لم تكن توافق عليه، لولا خشيتها من أن تشعر أمها بشيء؛ فيرتفع ضغطها، ويعتَلَّ قلبها.

❋ ❋ ❋

– أشعر يا زينب أن ذهابهما للطبيب حُجةٌ كي يبدأ بالصلح بطريقة غير مباشرة، فليس كلُّ الرجال يرضخون للتصالح المباشر.

قالتها وهي تراقب المارَّة من شرفتها؛ لعلها تجد فاطمة من بينهم وهي تتعلق بذراع سمير عائدة لبيتها، فتلك كانت أمنيَّتُها حتى لا تتسع الفجوةُ التي بينهما.

– بالفعل يا أمي هذا ما لاحظته أيضًا. قالتها وهي تمسك بأحد الكتب التي تترجمها لماجدة، واستطردت قائلة: ما رأيك يا أمي أن أبلغ مَاجدة هذه الأخبار السارّة.

كعادتها، قاطعت حديثهما بوثبتها الخاطفة داخل الشرفة، قائلة:

– سمعت كلمة الأخبار السارة، فما هي يا تُرى؟

نظرت الاثنتان لبعضهما، وضحكتا، واستطردت الأم قائلة:

– الأخبار السارة يا حبيبتي، هي أن تحضري لنا قدحين من الشاي.

همهمت قائلة:

– آتي دائمًا في وقت غير مناسب، لقد حان وقت المسلسل.

وهمَّتْ بالانصراف بعد أن عفَتْ أمُّها عنها تحضيرَ الشاي.

❋ ❋ ❋

طبع قُبلةً حارةً على يديها التي قبض عليها بيده، وهي بجواره بالمقعد الخلفي للسيارة الأجرة، والتي أمرَ سائقها بأن يقف ليهبطا منها عندما لَمَحَ على أحد جانبي الطريق محلاتٍ لبيع ملابس الأطفال حديثي الولادة؛ فقد تبدل حاله من بعد خروجه من عيادة الطبيب الذي كان ذاهبًا له خصّيصًا؛ ليستعلم عن نوع الجنين القابع برحم فاطمة، وعندما علم بأنه ذكرٌ؛ جُنّ جنونه بالعيادة، وانقض- بعفوية- ليحتضنها، ويقبِّل رأسها، فلم تتكلم؛ فقد انعقد لسانها، فكيف يتبدد حالُه، ويتحوّل لطفل يرقص ابتهاجًا؛ عندما وجد مبتغاه.

***

- الحمد لله أن هداهما، أتمنى من الله أن يصدق حدسُ خالتي وأن يتصالحا، إذًا فأخبريها بأنني علمت اليوم أنني أُلحقت بركب الحوامل، وكنت أودُّ أن أخبرها بنفسي، ولكن عودتها لبيتها أهمُّ عندي.

- مبارك لك يا ماجدة، جعله الله من الذرية الصالحة، وسأخبرها بذلك عندما أذهب لها، وأحضر أعمالها الأدبية للمجلة، فسأقوم أنا بإرسالها لك مع أعمالي حتى يتسنى لنا معرفة توصية الطبيب لها.. أتمارسُ حياتها اليومية بطريقة طبيعية؟ أم تقضي ما بقي لها من أشهر الحمل مستلقيةً على ظهرها؟.

- حسنًا، فلتشجعيها أن تبتاع حاسوبًا لها بمنزلها؛ حتى يتسنى لها أن تباشرَ أعمالها.

- حسنًا.. إلى اللقاء.

***

-١٢-

وما خفيَ..!!

تابعتْ نَهَمَه على ملابس الأطفال بشراهة، ولم تفلح نصائحُ البائع أنه يجب عليه أن ينوّع بين المقاسات؛ لأن الأطفال تحتاج كلَّ شهر- تقريبًا- لمقاس أكبر.

خرج من المحل، وتابعته فاطمة وهو يحمل الكثير من أكياس الملابس، وما إن وقف أمام المحل حتى لمح على الضفة الأخرى من الطريق محلًّا آخر، ولكن هذه المرة للعب الأطفال، لم ينتبه للسيارات التي تصدر أبواقًا تحذيريةً له وهو يعَرِّج بينهم ويشاور للسيارات؛ ليوقفها رافعًا يديه التي تحمل الأكياس، وكأنه يريد أن يقول للعالم.. «انظروا ما بجعبتي من ملابس ذكورية، إنني أستطيع أن أنجب الولد».

تابعت فاطمة حركاته البهلوانية وهو يعبر الطريق، والتي انتظرت حتى تأذن إشارة المرور للمشاة بعبور الطريق، تسأل في امتعاض ودهشة.. ما الذي يستدعي كلَّ هذا الانفعال!؟ فهو ليس أول أو آخر من ينجب؟ أهي حمية النشأة أن تكون أول ذريته ذكورًا! لم يقطع حديثها مع نفسها إلا نداداتُه لها؛ لتتبعه خارج المحل بعد أن ابتاع بعضًا من الألعاب، على وعدٍ مع صاحب المحل أن يأتي بالغد ليبتاع مجموعةً أخرى؛ لأنه لم يعد يتحمل ثقلَ الأكياس بيده.

كلُّ هذا، وهو لم يفكر في أن يتشاورمع فاطمة في أمر الملابس أو الألعاب، وهي التي لم تعرِ اهتمامًا بهذا الأمر؛ فما زال عقلُها ينتظر تفسيره لسؤالها: من هي سَميرة؟!

***

- سأقص عليك إذًا الآن كما وعدتك وعليك أن تستمعي لي جيدًا حتى أنهي حديثي. قالها بعد أن أعرب لها عن شدة ترحابه بعودتها لبيتها وحجرة نومها، وقد جلست على طرف الفراش على أوبة الاستعداد متيقظة العينين رغم ما عانته من إرهاق بهذا اليوم، ودقات قلبها تكاد تقفز من بين ضلوعها؛ لتعلنه قرارها المسبق (إنني لن أتهاون معك تلك المرة إذا ما حدثتني بشيء يُهين كرامتي؛ فلست فاطمة التي كنت تعرفها منذ ثلاثة أشهر).

يقبع أمامها على كرسي التسريحة، مترقبًا بتحدٍّ تلك النظرة الحادة التي أطلقتها عيناها عليه.

***

وثَبَتْ كعادتها من الشرفة إلى حجرة نوم أمها، وانتظرتها حتى فرغت من التشهد الأخير لصلاة العشاء، وما إن أتمَّت التسليم، وبدأت في الاستغفار؛ حتى جلست على سجادة الصلاة أمامها، وقالت:

- لقد رأيت فاطمة الآن وزوجها باتجاههما لسكنهما، ومعهما أكياسٌ بلاستيكية كثيرة جدًّا. واستطردت وهي تضحك: يبدو أنهما سطوْا على مركز تجاري ضخم.

وكزتها أمها بكتفها، قائلة:

- لن تكبري أبدًا، كبُرَ جسدك ولم يكبر عقلك!، لا أعرف كيف تتعاملين مع معلمينك بالمدرسة الثانوى بهذه العقلية؟!

- أتعامل معهم كطفلة لا تتنازل عن المركز الأول بالترتيب بين الأوائل من كل شهر، ولا تترك نشاطًا إلا وكان محظوظًا باختياري له.

– إذًا، فعليك تجميل تفوقك برجاحة عقلك، وابتعدي قليلًا عن المصلاة؛ كي أسجد لله سجدة شكر عمَّا أنعم به من فضلٍ عليّ وعلى فاطمة.

* * *

– لم أصدق ما قلت! أتعرف ماذا فعلتَ بي؟ أنت دلَّست عليّ يا سمير!. كيف تريد مني أن أسامحك على خداعك، وإخفاءِ جزءٍ مهمٍّ في حياتك كهذا؟ ماذا تنتظر مني أن أقوله لك: تنتظر أن أسامحكَ!، أم أن أربتَ على ظهرك، وأقول لك.. أحسنت التمثيل. اعطني عقلك.. كيف تطلب مني أن أغفر لك أبوتك لثلاثِ بنات وزوجة ما زالت بعصمتك؟ وكيف أغفر لك كذبَك المستمر في كل مرة تسافر فيها لقريتك وتبريرك أنك تزور والدتك؛ والدتك التي تُوفِّيت منذ أمد بعيد! وزوج خالتك المزيَّف الذي تشتريه كلَّ مرة ببضعة نقود تضعها بكفّه بعد إتمام المسرحية الهزيلة!؟ فكيف لابنة خالتك أن ترضى بتلك الخديعة من زوجها، وتقبل بتمثيل دور الخالة عندما قدَّمَتْ لنا واجبَ العزاء بأبي.

شهرت سبابة يدها اليمنى بحزم أمام وجهه، واضعةً راحة يدها اليسرى على صدرها محاولة تهدئة أنفاسها، التي كانت تسبق حروفها، قائلة:

– من الليلة يا سمير، كلٌّ منَّا بحجرته، ولولا إني أخشى حدوثَ مكروه لأمي ما كنت انتظرت ثانيةً واحدةً بهذا البيت المعجون بالتدليس والكذبِ، حتى أمهِّد لها انفصالنا، وليس لك عليّ سلطان؛ فأنت فقدت شرطًا من شروط القوامة.

اتجه ناحية باب الحجرة حيث تركته وسارت، وقد انتفخت

أوداجُه، وكشَّر عن أنيابه، وهو يجذبها من مرفقها أمامه بيده اليسرى ضاغطًا على صدغيها بيده اليمنى كمن أمسك عصفورًا وضغط عليه بين أصابعه بوحشية، يحاول خنقه أو على أقل تقدير، إخافته حتى لا يهرب. وقال متحديًا نظراتِها، ونبرة حروفها الخارجة من حنجرة لم يسمع بها من قبل:

– أنا لم أعد أرغب فيك، ولكن لي عندك أمانة وقتما تضعينها، وآخذها بيدي وأطوف بها بقريتي؛ لأُعلم الجميع أني بمقدوري إنجاب الذكور، وقتها فقط سأعطيك مفاتيح سجنك الذي سأحبسك فيه حتى ميعاد الولادة.

نزعت يدها منه، وقالت وهي تخرج من الحجرة:

– لولا أني أخاف الله؛ ما كنت أبقى على ما يقيدني بك. حتى وإن طُلِّقنا، فسيبقى ابني يحمل اسمك للأسف.

قالتها بعد أن دلفت لحجرة الصالون، وأوصدت البابَ بوجهه. لم تصاحبها في تلك الليلة عَبراتها كما كانت من قبل، بل صاحبها تفكيرٌ عميق، وسجودٌ أعمق، وتبّتلٌ لله، وشكوى مظلوم واثقٍ بنصر الله له.

فتحت عينها لتجد أمامها سمير والطبيب، الذي ابتسم لها بمجرد انتباهها، قائلًا:

– حمدًا لله على سلامتك يا بُنيتي، انتبهي لحالك المرة القادمة، وابتعدي عن الانفعالات، واستلقي على ظهرك الأربعة أشهر الباقية من الحمل. ثم نظر لسمير وقال: من الأفضل، ألا تتناول السجائر بالمنزل؛ فرائحتها تزكم الأنفَ منذ دخولي البيت؛ فهذا ضررٌ على الأم والجنين.

باغتته بسؤال قائلة:

- وإن تعرضت لانفعال أو قمت بأعمال المنزل والطبخ؛ فما الذي سيحدث؟!

فهم الطبيب ما بين سؤالها من توجيه التنبيه لزوجها- أيضًا-؛ فوزّع نظراتِه عليها وعلى سمير، قائلًا:

- فلا تلومنِّ إلا أنفسَكما بفقد الجنين.

قالها وهو يكتب لها بعض المقوّيات وبعض الإرشادات، وهمَّ واقفًا مؤكّدًا على ضرورة متابعة حالتها الصحية كلَّ ثلاثة أسابيع؛ للاطمئنان على الجنين.

❊ ❊ ❊

- ١٣ -

ألملمُ أشلائي..!!

كان هذا أقصى أمانيها بهذه المرحلة، أن تبتعد عنه حتى تستطيع أن تعيدَ ترتيبَ أفكارها، وما هي فاعلة بعد مرحلة الولادة، وكيف تواجه المجتمع بعقل واع وبثقة بنفسها غير مبالية لنظراتهم أو همْهماتهم بعد طلاقها؟، وما هو المصير إذا ما أجرم سمير في حقّها مرة أخرى، ونزع منها ابنَها؟ كلُّ هذه العواصف التساؤلية هبَّت عليها من كل جانب؛ لتعصف بأمِّ رأسها وهي تتقلب يمينًا ويسارًا؛ لعلها تفلح في تجنب تلك العواصف، وترحم فراشها الذي يئنُّ من كثرة تقلبها عليه، الذي توسَّدته بعد أن أتى بها سميرُ لمنزل أمها رغما عنه؛ لخوفه من فقد حلم عمره.

وهذه المرة بعدما اطمئن على حلمه الذكوري، أتى لها بالأدوية التي أوصى بها الطبيب، بعد أن رفضت ما أعطاها من مال، وقالت:

- الكرامة لا تتجزأ.

كما أراد أن يصاحبها لزيارة الطبيب، لكنها رفضت، وكانت تذهب مع أمها محاولَةَ جلْيَ ذكرياتها التي هالَ عليها رمادُ نيرانِ حياتها الحالية. وكلما نظرتَ لعينِ أمها تجَد تساؤلًا واحدًا لا يتغير وهَو..«مَا بك يا بُنيتي؟».

تحدِّث نفسها: «أتألم مثلك يا أمي، كلٌّ منَّا يريد أن يحتضن الآخر، ويبكي بين يديه. أعلم أنك تبكين على حالي من ورائي، ولكن ما بيدي أن أصدّق على حدسك، لا أعرف كيف أمهد لك ما سيحدث لي بعد الولادة، هل أتركك هكذا قلقةً الآن، أم مترقبةً لما سيحدث. آآآآه يا أمي تحتجر دموعي بمقلتيّ لخاطرك، وأنتظر نومَكن حتى أفتِّتها، وأتوسَّدها؛ فلعلها تتحدْ مع دموعك، وتخبرك بما يجيش بصدري،

لم أتحمل أن أخبئ عليك شيئًا؛ لقد كنت أنت الصديقة والصاحبة، ولكن قلبُك العليل يمنعني.

❋ ❋ ❋

استأذنت فاطمة أخواتها بأن تضع الحاسوبَ بحجرتها؛ لأنها لا تريد أن تزعجهما ليلًا وهَي تكتب وترسل للمجلة، وأعلنت لهما استئناسها بهما حينما يجلسان معها لاستخدام الحاسوب؛ فقد ملَّت من النوم الإجباري. رحَّب أخواتُها لذلك، ووجدت أمها أن هذا أفضل تسليةٍ لها، وأوصت أخواتها ألا يتحدثان معها عن أي أمور بينها وبين سمير؛ لما شعرت به أنَ هناك وضعًا متأزمًا بينهما، وكانت في انتظار أن تقصّه فاطمة عليها بعدما تهدأ انفعالاتها، التي وجدتها متجسدة بعينها كلما زارَهُن سمير، والذي زادت زيارته لهن كثيرًا، وبأوقات متفاوتة (مختلفة).

❋ ❋ ❋

بدأت في وضع خُطة لترميم وإصلاح نفسها التي بين جنباتها، قرأت في علم النفس كثيرًا، وأصبحت تبحث عن كل ما خُط بيمين المهتمين بالنفس البشرية والتجارب الاجتماعية، فكانت تجمع كلَّ ما كُتب في باب بريد الجمعة بجريدة الأهرام للكاتب عبد الوهاب مطاوع. كانت تصنِّف المشكلات بدفاترَ خاصة بها، فهذا الدفتر خاص بالمشكلات الأسرية، وذاَك بالمشكلات المجتمعية، وتلك للنفس البشرية، كانت تبحث عن ذاتها التي تاهت منها في خضَم مسؤلياتها المبكرة. كانت تستقطعُ جزءًا من راتبها في شراء الكتب لعبدَ الوهاب المسيري وإبراهيم الفقي والشيخ محمد الغزالي، وغيرهم ممَّن أعانوها بعد هضمها لتلك الكتب في لملمة أشلاءِ نفسها لتتجمع مرة أخرى كقطع البازل.

❋ ❋ ❋

-١٣-

لن أستسلم

كان بوسعي أن أتنفس
عند حلول الغيم
كان بوسعي أن أتحرك
وأقاوم هذا الضيم
هل أستسلم؟
لا
لكن الأيام تبدَّت
في عيني ركامًا مملوءًا»مزقًا»
حتى صرتُ كقطع البازل
لا أستكمل صورة نفسي
يأسي يأخذني للمجهول
لكني
لن أستسلم
سأطوف وأجمع مِزَقي
وأحررها من أَسْر الغربة
سأقاوم تلك العتمة
بضياءٍ مِن أملٍ وحنين
وبهاءٍ ولُحونٍ
وأضمّد كل جراحات العمر
أسبح وأرفرف كملاك علوي
يتغنى بالنور وبالإيمان

عليّ يوم ألقاني
في جلوة نفسي

* * *

كانت تلك الأشعار التي سطّرتها بيمينها، وأرسلتها لمجلة الأدب والشعر، والذي رآها سميرُ في صندوق الرسائل حينما أعلن عن وصول رسالة جديدة مضمونها «وصل المقال، شكرًا»، وذلك في عدم وجود فاطمة بالحجرة، والتي كانت تغتسل؛ فاستأذن أمَّها بأن يدخل حجرتها ليستريح قليلًا بها، فوافقت الأمُّ لِمَا وجدت من آثار للإجهاد على وجهه.

* * *

وما أن فتحت فاطمة باب الحجرة حتى وجدت يد سمير تدفعها بعنف للولوج بداخلها، وأوصد الباب بعنف ناسيًا أهلَ البيت، أجلسها بشدة بوسط السرير، ووقف حانيًا ظهره للأمام، شاهرًا سبابته أمام وجهها، والشرر يتطاير من عينيه مهددًا إيّاها قائلًا:

– لن أسمح لك بهذه المهزلة التي ستنتهي الآن أمامي. وأشار بيده تجاه الحاسوب، وأمسكها من مرفقها ودفعها لتجلس على الكرسي أمام الحاسوب، ووقف خلفها بانحناءة أمام الحاسوب، قائلًا: هيا، أعلميهم بأنك لن تكملي معهم؛ نظرًا لظروفك الصحية.

– لم يكن أمامي سوى أن أكتب ما أُمليَ عليّ حتى أعبر من تلك البوابة الضيقة التي اختنقت فيها أنفاسي، وبعدما اطمأن لوصول الرسالة انتظر الرد من المجلة التي أرسلت قائلة: سننظر في ذلك الأمر، نتمنى لك وافر الصحة والعافية.

لم يستطع البقاء بعدها، فقد وضع يده على رأسه من صداع داهمه فجأةً، وأخرج من جيبه دواءً، وابتلع قرصًا منه، ولم أساله عنه. لم

تعد صحته تهمني، بل لم يعد هو برُمَّته يهمني، ثم أمسك بيده علبة السجائر. وهنا فقط، تدخلت بقوة، وذكَّرته بما قاله الطبيب؛ فخرج مسرعًا، ولم يعبأ بأن يلقي السلام على أمي التي كانت قابعة أمام التلفاز بالصالة.

***

- وكيف علم بمقالاتك؟

- لقد تصفح كلَّ الرسائل التي كانت بيني وبين المجلة.

- وماذا ستفعلين بعد انسحابك من المجلة؟

- لا، لم أنسحب؛ بعثت لهم برسالة أخرى أعتذر عن الرسالة الأولى موضحة لهم أنها وصلت عن طريق الخطأ.

- وما الحل إذا ما قرأ اسمك بالمجلة، وعلم أنك مازلت تكتبين فيها؟ فمن الممكن أن يحلف عليك بالطلاق.

- أولًا: هو لا يستطيع الحَلفَ بالطلاق عليّ؛ لعلمه أني سأنفذ هذا الحلفَ؛ للتخلص منه، وثانيًا فإني أوصيتهم بأن يكون توقيعي دائمًا تحتَ اسم «أم أبيها» بدلًا من اسمي.

- ولِمَ هذا الاسم؟

- لقد كان أبي- رحمة الله عليه- يناديني به دومًا.

- لقد تغيرت كثيرًا يا فاطمة؛ أجد في كلامك عزيمةً وطموحًا وإصرارًا وقوةً.

- لقد فقدت الحب، وكنت على وشك أن أفقد كرامتي، فما الذي سيبقى لي أن أعيش من أجله. وسأعوِّض حبَّ الزوج بحب طموحي وكرامتي، وابني، وبمساعدة مَن هُن مثلي؛ فالحبُّ يا ماجدة حياة. «فإن لم تحب؛ فاعلمْ أنكَ ميِّت رغم شهيقك وزفيرك».

***

-١٤-

ما بين أمل وألـم..

تسارعت دقاتُ قلبها قلقًا وخوفًا، وهي بردْهة المشفى القابع به سميرُ بعد أن اتصل أحد زملائه بها، والذي وجد رقم هاتفها بالمفكرة الخاصة به التي كانت على مكتبه الذي وقع أمامه سمير أثناء صراعه مع المدير الذي تخطَّاه ليترقى زميلٌ بدلًا منه بالعمل، وما إن أوصلته سيارة الإسعاف بالمشفى حتى نقلوه لغرفة العناية المركزة حيث شخَّص الأطباء بأن الحالة أصابتها جلطة بالمخ؛ نتيجة ارتفاع بضغط الدم. وأخبرها الأطباء بأن هذه الجلطة ليست الأولى، بل الثانية، وأنهم حذَّروه من الانفعال، ومن تناول السجائر، ولكنه من الواضح لم يرضخْ لتحذيرات الأطباء الذين أخبروها بأنهم سيحاولون جاهدين لإذابتها رغم تأخُّر الحالة.

❋ ❋ ❋

– لا تقلقي يا بُنيتي، سيكون زوجك بخير إن شاء الله.

قالها الحاج سلامة، وهو يُطمئن فاطمة، وهي في طريقها للخروج من المشفى بعد أن رضخت لطلب زينب بأن تذهب لمنزل أمها؛ لتستريح؛ لأنها كانت تئنُّ بين الحين والحين. فهذا هو الشهر السابع بالحمل، ولتطمئن– أيضًا– على أمها التي لم تقوَ على الحضور للمستشفى؛ حيث شعرت بضيق في التنفس بعدما علمت بالخبر، فتناولت دواءها ونامت. هذا ما أخبرت به رقيةُ فاطمةَ عندما أدلفت للمنزل، وطلبت من رقية أن تحضر لها كوبًا من العصير لحجرتها، فهي تتمنى أن تنام بعد هذا اليوم الشاق.

❋ ❋ ❋

- لا داعِ للمكوث الآن؛ فالمريض لا يشعر بكم، وقد يكون بحاجة لكم غَدًا؛ فاذهبوا الليلة وزُورُوه غدًا.

قالها الطبيب الذي خرج للتوِّ من حجرة الرعاية المركزة للحاج سلامة وزوجته وزينب، واستكمل: فقط، عليكم بالدعاء له.

***

- سأنتظرك يا بُنيتي حتى تصعدي الدرج.

قالها الحاج سلامة لزينب، وهو يقف تحت بيتِهِنّ.

- لا يا حاج، سأصعد معها حتى تدلف لشقتها، انتظرني.

قالتها زوجة الحاج سلامة، وهي تأخذ بيد زينب، وتدخل بها إلى منزلها.

- حسنًا. سأنتظرك هنا، وأنت يا زينب أخبري فاطمة ألا تذهب غدًا للمستشفى؛ فهذا خطرٌ عليها، وسأذهب أنا وخالتك الحاجة، وسأتصل بكن إذا جدَّ جديد.

- إذًا سآتي أنا معكما يا عمي الحاج.

- لا يا زينب، فقط اعتني بفاطمة وأمك، شفاهما الله.

- حاضر يا عمي، السلام عليكم.

- ألم تخبرْنَ أحدًا من أهله يا زينب.

قالتها زوجة الحاج سلامة أثناء صعودهما درج المنزل.

- لا، لا أعرف. سوف أسأل فاطمة يا خالة.

- طيب يا حبيبتي، سلّمي على والدتك وفاطمة. تصبحين على خير، أغلقي الباب جيدًا يا زينب.

***

كان الليل كفيلًا بأن يُنذر بفجر جديد، يتجدد معه الأمل. وأشرقت الأرض بنور ربها، وغدت الطيور لرزقها، وكلما وجدوا رزقًا صاحُوا وأصاحوا؛ ليُعْلموا الجميعَ هلُمّوا فلنسترزق سويًّا، كم هي رائعة حياة الطيور!، حياةٌ نقية بلا كذب ولا تدليس، ولا حقد ولا غيرة، ولا تهديد ولا وعيد، فلِمَ لا نكن مثلهم!؟ ونحذو حذوهم، ونتوكل على رب البسيطة، ونرضى بما قسمه لنا من أرزاق، فبنِيَّاتِكُم تُرزقون.

كلمات كتبَتْها، وأرسلتها للمجلة بعدما أفاقت على تغريد العصافير وهديل الحمام على نافذة حجرتها، وكأنهم يرسلون لها شحنة إيمانية، وما إن أزاحت ستائرَ النافذة حتى احتضنتها الشمس، ورَوَت جسدَها بالدفء الذي ذكّرها بحضن أبيها، ومسَّدت ذراعُ شعاعها الذهبي شعرَها كما كان يُمسد أبوها شعرَها، فضمت ذراعيها على صدرها؛ لتحتفظ بذلك الشعور الذي بَعثَ لها بالأمل والاطمئنان.

لا تدري كم مرَّ من ساعات كانت غطَّتْهن في نوم عميق، ولكن ما تشعر به ذلك الهواء الذي جدَّد رئتها بعد أن سمحتْ له بالدخول عبْرَ شهيقها، والذي ملأ جميع أعضائها بالحيوية والنشاط، والذي سهَّل لها السجود لربها أرضًا بدلًا من السجود جالسة. وعندما تواصلت ناصيتها بأرض ربِّ العالمين؛ ألقت همومها عبْرَ تبتُّلها لربها، وأخرجت علَّتَها من جسدها بعَبراتها، التي أحاطت بوجهها الساجدِ لله، فزرعت الاطمئنانَ بقلبها الذي أخفق بين حناياها، وارتجف مع القشعريرة التي سرَتْ بفصائلها.

* * *

لقد نويت أن أُعْلم أمي بكل شيء يا ماجدة.

- ولماذا الآن؟!

- لا أدري، لكنني لم أعد أتحمل نظراتِها المشفقة عليّ، والغاضبة مني بإخفاء شيء مريب.

- انتظري حتى يُشفَى سمير يا فاطمة.

- لا، لن أنتظر؛ لأنها لم تجد مني لهفة الزوجة على زوجها المريض، فربما تتهمني بالجحود، أو تشعر بخيبة الأمل في تربيتها لي.

- ومتى ستخبرينها؟

- اليوم بعد الإفطار؛ فالصيام يسبب لها بعض المشقة، وهي تصرُّ عليه فلا أريد أن أزيد من مشقتها.

***

- هذا كل ما قاله عمي الحاج سلامة وزوجته، يا فاطمة، فماذا أنت فاعلة؟

قالتها زينب، وهي جالسة على طرف السرير أمام فاطمة، التي شردت بعيدًا، وانتبهت على أوجاع وآلام تأتيها بظهرها، وأشارت لزينب.. اتركيني قليلًا؛ حتى استريح، وأيقظيني قبل أذان المغرب؛ لأصلي العصر، وأجلس معكن، وأنتُنّ تفطرْن اليوم.

ومدت قدمَها، وأراحت ظهرها، وأرخَتْ رأسها، وأغمضت عينيها. وزينب تدثِّرها، وتطبعُ قُبلةً على ناصيتها.

أغلقت زينب باب الحجرة وراءها بهدوء، واستدارت؛ لتجد أمَّها تجلس على أريكتها الخاصة أمام حجرات البنات تسألها بشغف:

- هل فاطمة نائمة إلى الآن؟ فصلاة العصر أوشكت على الإقامة!

- لا يا أمي، بل كانت مستيقظةً منذ شروق الشمس، وشعرت بألم بسيط؛ فنامت لتستريح قليلًا.

قالت بقلق:

- ألَمٌ!!، أين؟

- بظهرها يا أمي، ما بك يا أمي؟

قالتها زينب بعد أن وجدت علاماتِ القلق على وجه أمها.

- لا شيء، هل أخبرتِها بما قاله لك عَمُّك الحاج سلامة؟

- نعم يا أمي.

ودلفت الأم لحجرة نوم فاطمة، وجلست على الكرسي المقابل لفراشها، وتمتمت ببعض الأدعية، وبما تحفظه من آيات الذكر الحكيم، وهي ترى تقلُّبها بالفراش تئِن مرةً، وتتأوه مراتٍ، ولم تشعر فاطمة بوجودها إلا عندما سمعت تنهيدَها المُفعم بالدموع؛ فأزاحت غطاءها من على رأسها، ونظرت وأمعنت النظر؛ فالحجرة كانت مظلمة حتى رأت يديها تخبئ وجهها الذي يبدو عليه أنه ملئ بالعَبرات؛ فاعتدلت ببطء على فراشها، وهي تضغط على شفتِها السفلى؛ لتكتم آهاتها حتى لا تتألَم أمُّها، وما إن شعرت بها أمُّها؛ فانتصبت وترجَّلت تجاه فَراشها، وهي تشير لها أن تبقى بالفراش كما هي.

***

-١٥-

كريـم

دقاتُ الساعة تشير إلى منتصف ليل القاهرة، وبداية يوم، بل بداية حياة بوصول هذا الكائن الصغير للدنيا، الذي يصدر تغريدًا كتلك العصافير التي سمعتها بأمْسها، وهذا كفيلٌ بأن يجعلها تقذفُ بهموم الماضي القريب لأبعد نهر؛ فميلادها بدأ مع ميلاده، ضمَّته بين نحرْها وعُنقها، وأومات برأسهاً قرب أذنه، تهمس له قائلة:

- حبيبي، كن حنونًا، كن صادقًا، كن أمينًا، كن صالحًا، كن كريمًا يا كريم.

لم يسمعِ الحاضرون ما تقوله، ولكنهم ضحكوا كثيرًا:

- أتكلمين مَنْ بالمهد يا فاطمة؟

قالتها الأم، وهي تمد يدَها؛ لتأخذه إلى الممرضة لتضعه بحجرة الأطفال بعد أن أتمَّت فاطمة إرضاعه.

***

كان الجيران يتقاسمون المستشفيات، فمنهم من ذهب مع الحاج سلامة؛ لزيارة سمير، ومنهم من ذهب مع فاطمة بعد أن سمعوا بأبواق سيارة الإسعاف تدخل الحي قبل أذان المغرب؛ فذهب البعض معها بالسيارة، والبعض أحضرَ لهم الإفطار بالمستشفى، ومنهم من عَلِم بهذا الخبر من أصدقاء والدها؛ فذهبوا لها بعد صلاة التراويح، وتسابقوا في إتمام السُّنة للمولود بالأذان بأُذُنِ كريم، الذي كان يتقلب بين أيديهم كقطة شيراز وليدة، يكاد يُسمع مواؤها الناعم.

***

لا يسمع سوى أزيزِ عجلِ الكرسي الذي يجلس عليه سميرُ، وهو

يلجُ إلى باب شقته وتدفعه فاطمة من الخلف تقف بالكرسي بمنتصف الصالة، وتعود لتغلق باب الشقة، وتكمل ولُوجَه لحجرة الصالون التي أعدتها له.

– ولِمَ حجرة الصالون يا فاطمة؟

قالتها ماجدة عبر المحادثة الإليكترونية بينهما.

– لأن حجرة النوم ضيقة للغاية، لا يستطيع الكرسي التحرك فيها بسهولة، وأيضًا إذا أتى الزائرون فلا يدخلون حجرة النوم.

– وهل علِمَ أحدٌ من أهله بمرضه؟

– نعم، عندما شعر زوج خالته المزيَّف بتغيبه عنهم لمدة شهر؛ جاء إلى هنا، وسأل عليه، وأبلغهم بالبلد، وجاءوا جميعًا؛ فرفض زيارتهم حتى بناتُه، ورضي بزيارة الدكتور محمود، وهو الوحيد الذي يجلس معه بالساعات، وأحيانًا يمكث ليلةً ليلتقي بطبيبه الذي يباشر علاجه، وأمكث أنا عند أمي كاليوم، فهذا من دواعي سروري أن أجدك تجيبين على رسائلي.

– اعذريني حبيبتي، فلم أعد أتحمل مشقة الحمل؛ فبعد المجيء من العمل أستلقي باقي اليوم على ظهري، غارقةً في سُبات عميق، ولكن حظك اليوم أني لم أذهب للعمل.

– شفاك الله حبيبتي، وأتمّ حملَك على خير.

– هل هناك أمل في شفائه يا فاطمة؟

– الأمل عند الله يا ماجدة، والأطباء يؤكدون استقرار الحالة إذا لم يتعرض لانفعالات أو ضغوط نفسية، فمن خلال جلوسي معه؛ أشعر بعدم تشبثه بالحياة، تأتي عليه أيام كثيرة يرفض الدواء والطعام، وخاصةً عندما يريد أن يحمل كريم، وتخذلانه يداه؛ فأحاول أن أقربه

من فمه ليقبله وفقط، بعدها أجده شاردًا بنظره لسقف الحجرة لا يحرك ساكنًا ولا يطرف طرفُه بجفنه، وأحيانًا أنادي عليه كثيرًا ولا يُجِيب عليّ؛ فأرتجف خوفًا من أن يحدث له مكروه.

– أنت ملاك يا فاطمة، بعد كل ما فعله سمير بك تَرضَخين لطلبه بالبقاء جواره!.

– لست ملاكًا، ولكنه العفو عند المقدرة. رغم ما أَلَمَّ بي من تصدعٍ لقلبي صعْبٌ ترميمه؛ إلا إنني عندما وجدت انكسارًا بعينه واستغاثةً، ورجاءً كالطفل الذي يرجو ألا تتركَهُ أمُّه بأول يوم بالمدرسة راجيًا إياها البقاء بجواره.

***

-١٦-

أول الغيث

أبدًا لم يكن
لم يكن حلمَ حياتي
لم يكن طموحي
لم يكن من خططي
ولكن..
تقاذفتني الظروفُ بأمواج الحياة
كما تتقاذف الأمواجُ القوارب
رسَتْ بي كيفما شاءت
لم أبغ هذا المرسى
لم أعَرف هذه الضفة
لم أع لغةَ أهلها
ولكَن..
لم يكن لي بدٌّ إلا أن أستسلم للواقع؛
فقد فارقتني القوارب
ولم يكن باستطاعتي العودة
لذا فسأكون
طائرًا يبحث عن فرع شجرة آمن
يبني عشًّا جديدًا
يتوكل على الرَّزَّاق ليعودَ بطانًا
يحلق بحلمه على من يصدِقه، أو من لا يصدقه

يعمر المكان ليجدَ من يؤنسه

يطيع البيئة حوله

لتستجيب لطموحاته

وتسخر ما أوتيَتْ لتنفيذ آماله

فتخرق الواقع

حتى يصبح الحلمُ

حقيقةً لا محالةً

ليبهر به من حوله

بهذه الكلمات النثرية سطّرت فاطمة مقدمة ديوانها الأول «أول طموحاتها»، الذي نشرته لها المؤسسةُ الإعلامية التي تعمل بها حيث كانت مفاجأةً لها عندما أعطت ماجدة لها حافظة أوراق كبيرة، وطلبت منها أن تفتحها فوجدت جميع ما سطّرته طوال الأربع سنوات الماضية، وخطابًا من المؤسسة بسرعةِ كتابة مقدمة لديوانها حتى يتسنى لهم إيداعه بمعرض الكتاب الْمُقام بدبي، كما حوَتْ الحافظة- أيضًا- على شهادة تقدير من المؤسسة على مجهودها بالمجلة، وكانت هذه أول زيارة لماجدة تطأ فيها أرضَ المحروسة بعد غربة استمرت ست سنوات أنجبت فيها «ياسمين» التي تقاذفتها فاطمة من خِصرها حاضنةً إياها، وكأنها تحضن أملًا جديدًا آخر، وما إن رآها كريم الذي يكبرها بعدة أشهر بين أحضان أمه حتى أمسك ذيل عباءة فاطمة، وأخذ يجذب فيها يمينًا ويسارًا بشدة؛ لتتركها، وتحمله بدلًا منها، فصاحت أصواتُ الحاضرين ببيت أم فاطمة بالضحكات، وهي تهمّ بالجلوس بينهم أرضًا، فجلست حولهم رُقية وماجدة، ولم تستطع أم فاطمة الجلوسَ، ولا حتى زينب لكبر حجم بطنها المملوءة

بتوأمين، والتي جاءت خصّيصًا للمبيت مع فاطمة؛ فهذا هو اليوم الشهري الذي تمكث فيه فاطمة عند أمها بسبب مبيت الدكتور محمود مع زوجها سمير.

***

بعدما نام الصغيران على فراش فاطمة، جلستا أرضًا أمام الفراش يتذكران أيامهما العذبة ذات الأحلام البسيطة، ويضحكان كلما تذكَّرا رقية الجالسة بوسطهما، وهي تتحرك بخفة داخل الشقة.

– وهل مازلت على وثْبك أمام طلابك بالكلية يا رقية؟

قالتها ماجدة، وهي تكركر من الضحك، وكأن الضحك كان عزيزًا عليها بالغربة. هذا ما أخبرت به فاطمة بعد ما استأذنتهما رُقية بالانصراف للنوم، بعد أن أحضرت لهما العشاء، واستطردت قائلة: لا أعلم، هل غيَّرت الغربة «فوزي»؟ أم هو كان هكذا، وأنا لم أكتشف طبائعه هذه إلا بعد الزواج؟!

– ما الذي حدث لكل هذه الدموع الحبيسة بمقلتيك يا ماجدة!؟

– بعد ما سافرنا بعام، فوجئت بأنه أكثر حرصًا بالمصاريف، أو بالأحرى أكثر شُحًّا. وبعد الولادة، فوجئت بأنه يخبرني أنه يشغّل أموال المصريين هنا بفوائد ثابتة، ولقد حذرته كثيرًا من تَبعات هذه الأموال علينا، وغضبت كثيرًا حتى يرجع عن هذا، إلى أن جَاء في يوم أبلغني أنه تنحّى عن هذا العمل، وفكر بكلامي واقتنع. وبعد فترة، اكتشفت أنه يأخذ أموال المصريين، ويبدّل العملة أيضًا، ويرسلها لذويهم مقابل نسبة بدلًا من نسبة المصرف المرتفعة. وكان يأخذ مني مبالغَ ليسدد ما عليه من فوائد للمصريين؛ لأنه وضع أموالَهم بمشروع هنا مع أخيه، وخسر المشروع، ورغم أنه كان يوفر نزولَنا،

إلا أنه أخيرًا جاء بنا لمصر؛ ليضبط الحساب مع أخيه. لا أعرف ما الذي أفعله معه!؟ لقد سئمت من هذه الحياة.

- اصبري يا ماجدة؛ فربما يرجع عمَّا هو فيه، طالما وجد الموضوع برُمّته يخسر، ولكن عليك أن تكوني ضميره المتيقظ دائمًا، ولكن بهدوء بدون عصبية.

طربت آذانهما بسماع أذان الفجر معلنًا يومًا جديدًا بأحداث متجددة.

* * *

-١٧-

أقـدار

دق رنين هاتفها المحمول، ألقت نظرةً خاطفة على شاشته، سألتها أمُّها عن المتصل؛ فقالت:

- إنه الدكتور محمود. يبدو أنه أراد السفر، ويريدني أن ألحق به؛ حتى لا أترك سمير بمفرده، سأكمل إفطاري معكن، ثم أذهب له.

- هل تسمحي لي أن أصطحب «كريم» مع «ياسمين» للملاهي؛ فلقد وعدنا «فوزي» اليوم بهذه الفسحة.

- إنه ابنك؛ تصرفي معه كما تشائين يا ماجدة.

***

- هل تأخرت على سفرك يا دكتور محمود؟

- لا، لكنني أريد أن أحادثك في أمرٍ مهم.

جلسا سويًّا بالصالة أمام حجرة سمير، الذي كان يتابعهما بعينه، وينصت لكلامهما جيدًا.

- لقد استفحل المعلم صبحي، وبعد أن كان يأخذ الإيجار من مستأجري الأرض ولا يعطي «سمير» إلا الفتات بعد إلحاح منّي شديد. ولم أستعمل معه العنف، بل عاملته بلطف كي أعرف خططه، علمت أنه سيبيع جزءًا من الأرض؛ ليشتري أخرى باسمه.

- وأين أم سميرة من هذا؟!

- لا تستطيع فعل شيء؛ فهو المتصرف في حياتهم بعد ما مرض سمير، فهو يعطيها من أرض والدها، التي ورثتها عنه الفتات أيضًا.

ابتسمت نصف ابتسامة سخرية، وقالت:أ

– لهذا الحدِّ يُرعب من حوله؟!

– لا، بل العكس، ولكنه استوحش بعد مرض سمير.

– فماذا علينا أن نفعل الآن؟

– لقد قضيت ليلة البارحة بإقناع سمير بأن يأتي معي إلى القرية؛ ليُعلم الجميع أنه غير موافق على بيع الأرض.

– وهل يوجد مع صبحي هذا توكيلٌ للبيع؟

– أتظنين أنه يحتاج إلى توكيل سليم، من المؤكد أن يكون معه توكيلٌ مزيّف، فلا أستبعد ذلك.

– لذا؛ أريد أن يسافر معي سمير.

– ولكنه أصر أن تسافري معنا، وتُحضري «كريم» أيضًا.

انتصبت واقفة، وقد لمعت عيناها، قائلة:

– لا، لن أذهب.

– اهدئي قليلًا؛ فسمير لا يطمئن إلا وأنت بجواره. وأنا من يعود بكم مرة أخرى إلى القاهرة، لا تقلقي.

– إذًا، فإننا لن نبيت هناك.

– اطمئني، سأعود بكم في نفس اليوم.

– غدًا فجرًا سنذهب سويًّا؛ حتى نستطيع العودة في نفس اليوم. إذًا، اسمحي لي بالانصراف، وسأرسل لكم الغداء بعد ساعتين من الآن مع أحد أبناء الحي.

***

– هل أنت فَرِح الآن يا كريم؟

– نعم يا عمي فوزي، هل سنأتي للملاهي مرة أخرى؟

– ربما يا كريم.

– هيا يا كريم، اصعد الدرجَ، وسأتصل بفاطمة؛ كي تفتح لك باب الشقة.

وطبعت ماجدة قُبلةً على جبينه، وهو بدوره لوّح بكلتا يديه لهم.

– ما رأيك أن تقنعي فاطمة وهي ذاهبة غدًا لقرية سمير؛ أن أشغِّل لها مالهما؟

قالها، وهو يأخذ منها «ياسمين»، التي كانت نائمة بين يديها. أشارت بسبَّابتها مُهددةً إياه، وقائلة:

– من فضلك يا فوزي، ليس لك شأن بفاطمة، لا أريد أن أخسر صديقةَ عمري بسببك.

– ششششش، اخفضي صوتك؛ فإننا في الشارع.

***

رابض الدكتور محمود بسيارته تحت بيت سمير حتى تنتهي فاطمة من تبديل ملابس سمير وتجهيزه للخروج، والتي جاءت له فجرًا بعدما ذهب صديقه للصلاة بالمسجد، وما إن وجد «كريم» يهبط الدرج حتى نزل من سيارته؛ ليلتقطه ويحضنه، ويحادثه، ثم أجلسه بجواره بالسيارة.

وبعد دقائق، دق هاتفه المحمول، فهمَّ بالخروج من السيارة؛ ليصعد الدرج، ويساعد فاطمة بحمل سمير، ولكنها لم تستطع؛ فحمله هو، وهبطت وراءه ومعها الكرسي المتحرك.

كان سمير مضطربًا، شاحب الوجه، منذ أربع سنين لم يَرَ الشارع، شاردًا لبعيد، ينظر للسحاب وهو مُستلق على ظهره بالكرسي الأمامي للسيارة، الذي قام الدكتور محمود بفرده له.

أسند «كريم» رأسه على ساق أمه، واستلقى على أريكة السيارة، وما هي إلا بضع دقائق حتى غطَّ في سبات عميق. وبعدما قطعوا مسافة ثلاثة أرباع الطريق تشنَّج سمير؛ مما جعل قلب فاطمة يرتجف؛ فهي لم ترَه هكذا من قبل. قامت من مجلسها بالكرسي الخلفي؛ لتقترب من سمير، قائلة:

- ما الذي أحلَّ به يا دكتور محمود؟

- لا أعرف، ربما يخشى مواجهة القرية وأهلها.

- كان علينا ألا نضغط عليه، ماذا نحن فاعلون الآن؟

ركن سيارته بجانب الطريق، واستدار لسمير الذي هدأ بعض الشيء، فسأله:

- أتريد أن نعود للقاهرة يا سمير؟ أشِرْ بإصبعك.

وما إن رفع سبَّابته؛ حتى سقطت يدهُ.

- سمير، سمير.

نادى عليه، وهو يحاول أن يفتح جفونه تارةً، وتارةً يقيس النبضَ الذي أعلن عن التوقف، ووفاة سمير.

- سمير.. سمير. تهز كتفيه، ولكن لا حياة لمن تنادي، أمسكت بهاتفِها وهي فاغرةً فاهَا، وتسارع الشهيق مع الزفير.

- ألو.. ألو فاطمة، ما بك؟ فاطمة، تحدَّثي ما الذي أصابك؟!

اختنق صوت فاطمة بالبكاء، وهي تقول:

- ماجدة، سمير.. توفَّاه الله.

- ماذا؟! إنا لله وإنا إليه راجعون، سنحضر لكم حالًا، أعطني العنوان.

أعطت الهاتف للدكتور محمود، الذي كان نحيبُه لا يتوقف وهو يعطيها عنوان القرية.

نظرت لسمِير، وقد اختلطت عليها مشاعر الشفقة، التي علَت على مشاعر الكُره والعنف تجاهه، مما لاقته منه في حياته، إلا إنها سلَّمت أمرها لله، وتذكرت أنه سيرِدْ على ربٍّ كريمٍ إن شاء عفى عنه وإن شاء عامله بما فعل. وتبتَّلت لربَها وهي تقول: أُشهدك يا ربي، أنّي قد سامحته.



-١٨-

اختطاف

– لا تخافي يا سيدتي، فستقبعين بمكانٍ بعيد عن منزل سمير، حتى لا يخاف «كريم» من هوْل ما يحدث.

تنظر له في مرآة السيارة التي أمامه، وهي تسأله بصوت مغلَّف بالبكاء، وبنبرة خوف:

– أين سنذهب يا دكتور محمود؟

– بمدخل القرية توجد سيدة تبلغ من العمر أرذلَه، كفيفة، وحيدة، ستبْقيان بدارها حتى يأتي أقاربك من القاهرة، وتتلقين عزاءَ زوجك بصحبتهم. أخشى عليكِ من سيدات الدار، وخاصة أم سميرة.

هدّأ السيارة قليلًا، ثم أوقفها بوسط الطريق، ونزل من السيارة، وقدِم تجاه فاطمة، وفتح باب السيارة، قائلًا:

– تفضلي. فلنترجَّل حتى دارها؛ فالسيارة لا تستطيع الدخول هناك.

كان الطريق خاليًا من المارة حين تفحَّصَته بنظرها يمنةً ويسرة، وما إن وضعت قدميها المرتجفتين حتى أحنَت جزعها، وأدخلته بالسيارة، وحملت «كريم» وهي تلقي نظرة الوداع على «سمير»، وضمت «كريم» بين ذراعيها كأنما تريد إعادته لرحمها؛ حتى تجنبه المخاطر.

يقفز قلبها من بين حناياها، وتسير بخطًى ثقيلةٍ؛ فهي لا تعرف الطريق، بل لا تعرف مصيرها كيف سيكون؟!

مشى الدكتور محمود بجوارها، وما إن أطلَّ بيتٌ من بعيد حتى أسرع الخطى إليه وطرق بابه، كانت تتبعه حتى وقفت وراءه، فتح الباب؛ فخرجت منه عجوزٌ محنية الظهر، متعكزة على فرع شجرة عتيق، يبدو أنه يساوي عمرها، قائلة:

– من القادم؟، من بالباب؟

– نحن معنا الطعام ائذني لنا بالدخول.

تراجعت للخلف قليلًا؛ حتى تفسح لهم مكانًا للولوج لدارها.

أشار لفاطمة إشارةً فهمت منها أن تعطيها من طعام «كريم»، الذي كان معها، ففتحت على الفور حقيبتها، وأخرجت الطعام، وأخذه منها وأعطاه للعجوز، ثم قال:

– سأذهب لأحضر لك طعامًا آخر، ولكن معي ضيوف سينتظرونني عندك.

– حسنًا، أهلًا بالزائرين، تفضَّلوا.

تتابعه بنظراتها، وهي متوجسة خيفةً من تركه إياها مع العجوز.

مال برأسه قليلًا، وهو يحادثها بخفوت:

– لا تقلقي منها؛ فهي تنام كثيرًا، وبعد قليل ستنام، اجلسي هنا– وأشار بيده لأريكة متهالكة قابعة وراء باب الدار– ولا تتحركي حتى يأتي أهلك، ولكن أعطني رقم هاتف أي أحدٍ منكم.

غاب عقلها لبرهة، ثم انتبهت، قائلة:

– أُفضل أن تأخذ رقم زوج صديقتي الأستاذ فوزي؛ حتى لا تعلم أمي بذلك، ويؤثر الخبر على صحتها.

***

كان السواد الأعظم والسائد بمكان العزاء بين السيدات اللاتي تجمعن بدار عائلة أم سميرة، ورغم أن صوت آيات الذكر الحكيم الصادرة من ميكرفون المندرة المثبَّت أمامها على جذع الشجرة، والذي يصل صوتُه لأماكن كثيرة بالقرية، إلا أن الهمهمات بين النساء تبدو أنها أعلى صوتًا، فهذه تميل برأسها على تلك، ترغي وتزيد،

وتلك تستلم أُذنَ هذه، وبينهما حديثٌ واحد، وهو زوجة سمير المصراوية وابنها الجالس على ساقيها، وصديقتها التي تقبع بجوارها، ومن لم تتحدث بلسانها كانت عينها ونظراتها أشدَ ألمًا من لسانها على فاطمة، التي رأت أنه من الواجب أن تقدّم العزاء لأم سميرة وبنتَيْها الجالستين بالناحية الأخرى من الدار، ولكن عنَّفتها ماجدة، قائلة:

- أجننتِ!؟ ألم تعلمي ما الذي سُيفعل بك منها ومن أهلها؟

- سأقدم لها واجب العزاء وأسلم على أخوات «كريم»، ونسافر بعدها.

وقامت، وأجلست «كريم» مكانها، وهي تقول لماجدة:

- اتصلي الآن بزوجك أخبريه يحضر السائق بجوار الدار، ونجلس بالسيارة حتى يأتي لنا، ونسافر قبل منتصف الليل.

قالتها، وهي تترجَّل ناحية أم سميرة، ولم تستطع ماجدة منعَها؛ فالعيون كالسهام عليهما.

* * *

- يا رقية، اتصلي مرة أخرى على فاطمة، فقلبي غير مطمئن يا بنيتي عليها.

قالتها، وهي تخرج من حجرة الصالون، بعد أن كانت تنتظر فاطمة بالشرفة.

- إني أحاول كثيرًا يا أمي، ولكن هاتفها مغلق. يبدو أن بطاريته أُفرغت، تعالي اجلسي بجواري يا أمي، واهدئي؛ فالطبيب نبَّه عليك أكثر من مرة ألا تقلقي، ولا تنفعلي.

- سأذهب لأصلي بحجرتي، وأقرأ القرآن. فإن علمتِ عنها شيئًا؛ فطمئني قلبي عليها.

- حاضر يا أمي، وسأصنع لك كوبًا من الينسون؛ ليهدئ من توترك.

***

تنظر ليَدِها الممدودة أمامها بالسلام، ثم تنظر لعينها، وهي واقفة أمامها، وتقول:

- لن أمدَّ يدي لك بالسلام؛ أنت من قمتِ بخطف زوجي سمير حيًّا، وجئت به ميتًا. ما ذنب بناتِه تتيتَّمن وهن صغيرات!.

وتشير بيدها على بنات سمير؛ حيث يبدو على سميرة الكبيرة أنها ابنة العاشرة، والتوأمان يبدو عليهما أنهما يصغُرانها بقليل.

تخطو خطوة بالجنب، وتمسّد على شعر سميرة، التي كانت عيناها منتفختيْن من البكاء، وما إن رأت أم سميرة ذلك، حتى جذبت يدها، وهي تقول:

- ما لك وبناتي! أَلَم يكفِكِ أنك قصفتِ عمرَ أبيهن؟

- الأعمار بيد الله، وليست بيد مخلوق.

- بل أنت شؤم علي البيت، وعلى...

وقبل أن تكمل كلامها، علتْ أصوات سيدات يدخلن الدار بالصراخ والعويل، وحدث هرجٌ ومرج. تركتها فاطمة متجهةً لماجدة، ولكن حالت بينهما هؤلاء السيدات اللاتي يصفعن وجوههن، ويشقُقْن جيوبهن. ويبدو أنهن يجاملن أم سميرة، وبالكاد استطاعت ماجدة أن تصل لفاطمة وهي تجري عليها، قائلةً بصوت عالٍ:

- كريم اختفى يا فاطمة.. بلمح البصر لم أجده بجواري.

هامت على وجهها خارج الدار، وخرج وراءها بعض السيدات ليتفرجن فقط ويمصمصن شفاههن.

ومنهن من تقول: لا تخافي؛ ستجدينه هنا أو هناك يلعب مع الأطفال.

سمع بصوت نداء زوجته لكريم؛ فترك العزاء، وجاء مسرعًا ليستعلم عما حدث.

ثم رجع مرة أخرى للعزاء؛ لتدور عينيه بين الرجال، فلم يجد المعلم صبحي والدكتور محمود.

يعود مرة أخرى لزوجته وفاطمة، وهي التي عصاها الكلام؛ فدموعها كانت حديثَها. لم تجد ما تقوله، لقد انخلع قلبُها من بين حناياها، تساندها فاطمة بيديها بعدما رأتها تفقد توازنها. وهنا، أتت سميرة لها بكرسي لتجلس عليه وتركته، وجَرَت بالداخل خوفًا من أمها التي توعَّدتها بالعقاب.

أعلن هاتف «فوزي» عن تلقي رسالة، ولكن لم يُلقِ لها بالًا، فما زال يتصل بالدكتور محمود الذي لم يجب على اتصاله.

- كيف السبيل الآن يا «فوزي»؟ من المؤكد أن كريم تم خطفه!

قالتها ماجدة بصوت خفيض؛ حتى لا تسمعها فاطمة.

- لا أعرف! كلما اتصلت بالدكتور محمود لا يجيب.

نظرت له، وهي تقول بدهشة:

- أتظن أن يكون هو الخاطف؟

قطع حديثهما سماعُ صوت الدكتور محمود بميكرفون مسجد القرية، وهو يقول:

- أهالينا، أولاد عمومتنا، لقد اختفى ابنٌ من أبنائكم الآن، وهو ابن قريتكم «كريم سمير» من وسط عزاء والده، فماذا أنتم فاعلون؟ قد انخلع قلبُ أمه عليه، وهي ضيفة علينا بالقرية، فهل تجد عندكم الرحمة بوليدها؟ فهل ستساعدونها؟

وأثناء ذلك النداء كان قد تجمع أهالي القرية حتى ملئوا الطريق الذي يصل بين المسجد ومكان العزاء، وانقسم الشباب والرجال لفرق لمحاولة الوصول إلى «كريم» والذين بدؤوا يُسائلون «فوزي» عن تفاصيل «كريم»، وملامحه وثيابه.

وأثناء ذلك، استمرت الرسائل على هاتف «فوزي»، وما إن قرأها هو وماجدة حتى نظرا لبعضهما البعض، ثم استدارت ماجدة لفاطمة التي كانت ترتكز على مرفقيها قائلةً بصوتٍ عالٍ:

– هيا يا فاطمة، من الواضح أن يكون ابنك يلعب هنا أو هناك مع الأطفال. هيا نركب السيارة لنبحث عنه، وأشارت بيدها لفوزي.. هيا يا فوزي اركب معنا.

– لم تكن فاطمة تترك المكان لولا أن أشارت ماجدة بعينها لها، وضغطت على يدها؛ لتفهم أن هناك شيئًا ما لا يجب الإفصاح به أمام الحضور.

❊ ❊ ❊

-١٩-

عائـد ومغـادر

- أين كنت يا معلم صبحي، نظرت حولي ولم أجدك؟

قالها الدكتور محمود أثناء إقبال المعلم صبحي عليه، وهو شاحب الوجه مطالبًا إياه بالابتعاد قليلًا عن الناس؛ ليحادثه في أمر مهم.

- سأقص عليك قولًا، ولكن عليك ألا تتفوَّه به لأحد؛ حتى لا تكون حياة «كريم» في خطر.

هنا، انتبه الدكتور محمود لكلامه، وبرقتْ عيناه، وانتبه طنين أذنيه لما سيسمعه قائلًا:

- هات ما عندك بسرعة أتعرف أين «كريم»؟

- نعم، هو في أمان إلى الآن، حتى تنفِّذ أمُّه كل ما أطلبه.

- أنت.. أنت الذي اختطفته؟ حادثتني نفسي أنك وراء ذلك، ولكنني كذَّبتها. فماذا تريد الآن؟!

- أريد إقرارًا موقَّعًا من «أم كريم» باستلامها كلِّ ما لها ولابنها من تركة سمير، وغير مؤرَّخ.

- وهل استلمت «أم كريم» نصيبَها، ونصيبَ ابنها من التركة، حتى توقّع لك هذا الإقرار؟!

- هي لا تملك غير ذلك؛ لأن نصيبها سيذهب فدية لكريم إذا كانت تريد له النجاة.

- لك أنت إذًا.

- هذا ما عندي.

قالها المعلم صبحي وهو يغادر المكان.

توتَّدت قدماه الأرض قليلًا، وهو رافع حاجبيه متعجبًا ومحدقًا بنظراته بعيدًا، حتى اختفى المعلم صبحي عن نظره، ثم أخذ شهيقًا عميقًا، وانتبه لحاله، واستدار متجهًا لفاطمة، والذي أخبرها بعد أن وجدها تهذي بكلام كأنها شعرت بما سيحدث لابنها، قائلة بنحيب:

- لا أريد منهم شيئًا، لا أريد ميراثًا، أريد ابني فقط.

تحضنها ماجدة أكثر.. وأكثر، وقد اختلطت دموعهما ببعضهما البعض، أحنى الدكتور محمود جذعه أمام فاطمة، قائلًا بصوت خفيض:

- اهدئي يا أم كريم، ولا تثيري أيّة انفعالات لسلامة «كريم»، لقد وجدت «كريم».

هنا هبَّت فاطمة من مجلسها، ومسحت دموعها، وعيناها تنظر هنا وهناك، قائلة:

- أين هو؟ أين ابني؟ لماذا لم أَرَهُ معك؟

نظر لماجدة وزوجها، قائلًا:

- أرجو منكما تهدئتها؛ حتى نستطيع أن نتصرف بحكمة. تعالوا معي إلى الصيدلية الخاصة بي؛ فهناك نستطيع أن نتكلم.

- كنت أعلم أنه خسيس ونذل، ولكن لم أتوقع أن يصل لهذه الدرجة.

قالتها فاطمة بعد أن عرفت مطالب المعلم صبحي.

- فماذا نحن فاعلون الآن يا دكتور؟

قالها فوزي الذي قاطعته فاطمة على الفور، قائلة:

- سأوقع له على كلِّ ما يريد، المهم سلامة «كريم».

– طوال الطريق، فكَّرت كثيرًا إلى أن هداني تفكيري أن نفعل ما يريد، وما نريد.

انتبه الجميع لكلامه، وقالت ماجدة:

– كيف ذلك يا دكتور!؟

نظر إليها، وقال:

– سنكتب هذا الإقرار، ولكن ستوقعين أنت عليه يا سيدة ماجدة، بدلًا من أم كريم.

وبذلك يكون المعلم صبحي قد شرب هذا المقلب، وهو من جنس عمله، فلو تقدم بهذا الإقرار لأيّة جهة؛ فسيحاكم بجريمة التزوير. وبذلك نكون قد حفظنا حقوق «كريم» وأمه في ميراث المرحوم سمير.

اتصل الدكتور محمود بالمعلم صبحي، وطلب منه اللقاء؛ ليعطيه ما يريد، ويسترد كريم، ولكن بعد سماع صوت كريم، والذي انخلع قلبُ أمِّه عند سماعه عبْر الهاتف، وهي تحادثه وتطمئنه بأنها سوف تأتي لتأخذه.

***

– لقد خفق قلبي وانشغل عقلي. لماذا كنت تغلقين هاتفك كلَّ هذا الوقت؟، هل أنت و»كريم» بخير؟!

– نعم حبيبتي، الحمد لله ولكن كانت بطارية الهاتف أَفرغت شحنها يا رقية. والآن أخبريني أين أمي؟

– تناولت الدواء، واحتست الينسون، وغالبها النوم وهي تنتظرك ما بين الشرفة والصلاة بحجرتها. متى ستعودين؟ لقد أوشكت الشمس على الشروق. لم أستطع النوم قبل أن أطمئن عليك.

- لقد عدتُ بالفعل، وأمكث عند والدة ماجدة، وسأقص عليك بالتفصيل ماذا حدث، ولكن حذارِ أن تعلَمَ أمي بأي شيء حتى أعود، واستطردت سائلة: هل علمتَ بوفاة سمير؟

- لا، فلقد نبهت على زينب ألَّا تخبر أمي بذلك ولا زوجها، حتى يعود من سفره لأني خشيت أن يتصل بأمي ليعزّيها.

- حسنًا.. سأحدثك عن كل شيء بعد أن أستيقظ من نومي؛ لأني مجهدة للغاية.

***

تركت هاتفها بجوارها، وأرخت رأسَها على الأريكة، التي تقبع أمام فراش ماجدة وهي عاقدة ساعديها أمام صدرها، تنظر لكريم النائم أمامها، وتدعو ربَّها تارةً وتشرد تارةً، وتغفو في النوم أحيانًا وهي جالسة؛ فالليلة المرعبة التي قضتها كفيلةٌ بأن تسحب الأمان من وجدانها.

انتبهت من شرودها وهي لا تعرف كم مضى من الوقت عندما طرقت أم ماجدة الباب عليها، تعلمها بقدوم زينب.

***

- حبيبي يا ابني، لقد كان يومًا حزينًا وشاقًّا عليك، وأنت بهذا العمر.

قالتها زينب بعد أن قصَّت عليها فاطمة ما حدث، واستطردت قائلة:

- وهل حدث بعد ذلك شيء؟!

استكملت فاطمة، قائلة: بعد وقت ليس بالقصير، اتصل بنا الدكتور محمود؛ ليطمئن على «كريم»، ويخبرنا أن أخًا له سينتظرنا بالطريق، ويعطينا شنطة تحوي بداخلها مبلغًا من المال.

زادت دهشة زينب، وسألتها:

- ما هذا المبلغ؟!

اتصل الدكتور محمود بنا بعد برهةٍ من مقابلتنا لأخيه؛ ليخبرنا بأن هذا المبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيهًا، هو كلُّ ما كان يودعه «سمير» عنده؛ لأنه لم يودع نقوده بالمصرف، وقال: أنت الآن أحق بهذا المبلغ طالما لم تستطيعي الحصول على ميراثك وميراث ابنك، رغم إنه أقلّ بكثير من حجم الميراث.

قامت من مجلسها متثاقلة من حملها؛ لتطبع قبلةً فوق جبين فاطمة، وجلست بجوارها وضمَّتها بحضنها، وتشبثت بها فاطمة كالطفل الذي يتشبث بحضن أمه ليستمد منها الأمان، وفي هذه الأثناء فُتح عليهم بابُ الشقة، وولجت إليهما ماجدة ورقية التي قابلتها على درج البيت.

***

كان اجتماعًا رباعيًّا لا ينقصه سوى والدة فاطمة، التي عرفت من رقية أن فاطمة ستمكث بالقرية يومين، وستتصل بها مساءً. وهذا أثارَ قلق والدة ماجدة عندما علمت بهذا الحديث؛ مما جعلها تقول:

- يا بناتي، لا بد أن تعرف والدتُكُن بهذه الأخبار. فإن علمت بها- بعد ذلك- من الممكن أن تغضب منكن.

- يا خالة، أخاف عليها من الصدمة.

قالتها رقية، وهي تقدِّم أكواب الشاي لهن.

- يا بنيتي، بعد صدمة فقد الزوج تهون أيّ صدمات.

- لكن الطبيب حذرنا من تعرضها لأيّة انفعالات، فأنا على وشك الوضع، فما رأيك بعد أن أضع توأمي، نقول لها وهي منشغله بي؟

- لا أعرف يا بنيتي، ولكن من المحتمل أن يؤثرعليها قلقُها على فاطمة أكثر من تأثُّرها من تلك الأخبار.

التفتت ماجدة إلى فاطمة:

- بجوارها، إلى أين شرد ذهنك يا فاطمة؟ وما هو رأيك أنقول لوالدتك أم لا؟

تنهدت بعمق، واعتدلت في جلستها، وقالت:

- كلُّ ما أريده أن أرى أمي، وأحتضنها.

- إذًا، فلتتفضل عندنا يا بنيتي، لتذهب ماجدة ورقية ليأتيانك بها.

- لا تستطيع صعود وهبوط الدرج، سأذهب أنا وأترك «كريم» هنا.

- لا يا فاطمة، لا تضمني المعلم صبحي، سأذهب أنا ورقية كما قالت أمي.

وقفت أمام فاطمة، وهي تربت على ظهرها، قائلة:

- يا بُنيتي، الحل الوحيد أن رقية ووالدتك تمكثان هنا عندي، فكما ترَيْن الشقة كبيرة، وماجدة- بعد يومين- ستسافر. فهذا هو الحل الذي تتطلبه تلك المرحلة.

ترفع رأسها، وتنظر لها، لكن يا خالة أمي لا تستطيع أن تترك بيتها، أنا أعلم مدى ارتباطها به، وما به من ذكريات لأبي.

- سأذهب الآن يا فاطمة لها، ومعي رقية.

قالتها ماجدة، وهي تقوم من مجلسها، واستطردت، وهي تسير لرقية:

- هيا هيا يا رقية.

***

مرَّ ثلاثةُ أسابيع، وأم فاطمة تصرُّ على زيارة فاطمة، والعودة لبيتها كلَّ ليلة حتى جاء اليوم، الذي كانت تخشى منه فاطمة؛ فقد تعبت الأمُّ بسبب الجهد المُضني الذي كانت تقوم به؛ فأصر الجميعُ على أن تمكث عند أم ماجدة حتى يتم توفير مسكن ملائم بعيد عن المنطقة لا يعرفه أحد. وبعد أن جمعت رقية كلَّ متعلقاتهن الشخصية بأكثر من حقيبة؛ ولَجَتْ لحجرة أمها لتجدها قابعة على الكرسي الوثير أمام صورة والدها. أضاءت رقية مصباحَ الحجرة، وارتجلت إلى أمها، ثم جثت على ركبتيها، وقالت بهمس:

- أعلم يا أمي أن هذا الأمر على غير رضاك، ولكن تعليمات الطبيب لك بالراحة التامة هي التي جعلتنا نفعل ذلك؛ فلتسامحينا ولترضي عنا.

قالتها، وهي تطبع قُبلةً على ظهر كفِّ أمها، الذي قبّلت راحته أيضًا، ثم وضعت وجنتها اليمنى عليه، وأغمضت جفنيها، وهي تتنهد قائلة:

- أشعر بأنني ريشة بالهواء، وليس لي سلطان عليه يحركها كيفما يشاء.

مسَّدت الأم على شعرها، وربتت على ظهرها، قائلة:

- يا بُنيتي، تجلّدي؛ فاللدهر يومان: يوم لك ويوم عليك. واعلمي أني راضية عنك وعن أخواتك؛ فلا تحملي همًّا فإن كل شيء عنده بمقدار، هيا يا حبيبتي اتركيني الآن أصلي وأنام حتى الصباح؛ لنذهب لفاطمة سويًّا، وأغلقي المصباح، وأوصدي الباب.

* * *

شعاعٌ من النور يأتي من إنارة الشارع، يمرُّ بنافذة حجرتها على صورته المعلقة بالحائط، فتضيء وجهه، وكأنه يبتسم لها حينما حادثته، قائلة:

– حبيبي، كيف أنسى يوم زفافي وأنا عالقة بيديك أتلمس فيك حنان أبي حينما وجدتني أرتعد خوفًا أم خجلًا أم حبًّا.. لا أدري، وأمسكت بأطرافي فوجدتها مثلجة رغم حرارة شهر أغسطس. وقتها، دثَّرتني وهدَّأت من روعي، ثم أطعمتِني بيدك، فكنت لي الأب والحبيب والصاحب؛ فكيف لي أن أتركك؟! وأنت لم تكلّ ولم تملّ من دلالي عليك، وتحملك طابعي الطفولي!. أتعلم أني مازلت أراك بكلِّ ركن بالبيت؟ أسمع ضحكاتك، وأردد وراءك ما كنت تتلوه عليّ من القرآن الكريم. أشعر بتقلبك بجواري، فكيف لي أن أتركك، وأرحل بعيدةً عنك؟! سأبقى بجوارك، أعلم أنك تهواني، فكيف لي أن أنساك، وأتركك يا عمري.

❋ ❋ ❋

-٢٠-

مسافرٌ زاده الآمالُ

خطّ بيمينك حلمك

ارسم حلمك بريشتك

صدق حلمك

توكل علىٍ ربك

يسخر الله لك الكون لتحقيق حلمك

فتصل إلى محطة الحلم فتجدها تحققت

انتبه.. لا تركن

المحطاتُ لا تنتهي

والأحلامُ لا تموت

بهذه الكلمات، بدأت حديثها مع فريق العمل الذي ترأسه بمجلة «بوح الأدب»، وقد رحّب بها رئيس التحرير والعاملون معها بالمجلة، راجين منها أن تهنَأ بقدومها إلى دبي، وبالعمل كرئيس القسم الأدبي للموهوبين الشباب، وهو قسم استُحدث بالمجلة، وهي أول من ترأسه منذ أن وقّعت عقدًا للعمل بالمجلة، وحصلت على تصريح الإقامة بعدما فاجأتها ماجدة بهذا العقد؛ حيث كانت تسعى بدون علمها؛ لتحصل لها على عقد عمل؛ لتستطيع ترك مصر خوفًا على حياة «كريم» خاصةً بعد ما تعرض لمحاولة اختطاف أخرى فاشلة، بعزاء والدة فاطمة.

***

كان السكن قريبًا من ماجدة، التي حاولت جاهدةً أن يكون بالقرب منها؛ حتى لا تشعر صديقتها بالوحدة والغربة.

– لا أعرف كيف طوَّعت لي نفسي يا ماجدة، أن أترك رقية بمصر.

قالتها فاطمة، وهي تقوم بترتيب حجرة «كريم».

– أنت تعلمين أن مستقبلها هناك، بعد أن أصبحت معيدة بالكلية، وتدرس الماجستير، فكيف تترك ما بدأته بالرسالة هناك، وتحضر هنا إلى مجهول لا تعرفه!؟ واسترسلت، وهي تقول: يا فاطمة، لكل فرد طموحه وآماله، التي يجب أن يحققها بطريقته الخاصة.

قالتها ماجدة، وهي تعلق ستائر النافذة بحجرة «كريم».

– أعلم ذلك. ولكنني قلقة جدًّا عليها.

– كيف لك أن تقلقي، وهي تمكث مع أمي التي فرحت جدًّا بوجودها معها.

– هكذا هي الأقدار!، تتقاذفنا، وترمي بنا كيفما تشاء.

– دعي القلق، وركّزي فيما سأقوله لك. أريدك أن تأتي معي غدًا؛ لتقديم الأوراق لالتحاق «كريم» بمدرسة «ياسمين» حتى لا تفوته السنة الدراسية.

– حاضر يا ماجدة. دائمًا تشعرينني بأنني مسؤولة منك، رغم عمرنا المتقارب. والآن أصبحت أنا وابني يا ماما ماجدة.

قالتها، وهي تضحك وتحضن ماجدة، التي بادلتها القبلات، قائلة:

- سأحمل مسؤوليتك يا فطومة حتى آخر يوم في عمري.

- حبيبتي يا «ماجي»، أعطاك الله البركة في العمر، ودوام الصحة والعافية.

***

تجلس فاطمة على طاولة الاجتماعات الدائرية القابعة بوسط حجرة مكتبها؛ بناءً على رغبتها فهي لا تحب الجلوس وراء مكتبها، بل تحب أن تجلس مع المحرِّرين على الطاولة كما كانت تجلس مع عائلتها على طاولة الطعام، فكانت- دائما وأبدًا- تحثهم على ضرورة تماسكهم كأسرة واحدة يجب أن ينهضوا جميعًا بالقِسم، ويرتقوا بالعمل الجماعي، وتحيط الطاولة مجموعةٌ من الأوراق النباتية الخضراء والزهور الطبيعية، والتي تنمو على ضوء الشمس الذي يدخل لها من وراء النوافذ الزجاجية المرتفعة التي تحيط بالمكتب. وعلى يمين فاطمة ويسارها، يجلس محررو القسم من الشباب يستمعون لخُطّتها التي وضعتها، وما هي آلية التنفيذ لها؟ وتستمع لمقترحاتهم والتي كانت تثني عليها كثيرًا. وفي قسم شباب المبدعين، كتبَ العديدُ من الشباب الذين كانت تحمِّسهم فاطمة للمزيد من الإبداع والابتكار.

اقترحت عليهم فاطمة أن يكون لها باب- بجانب الشعر والخواطر- لتلَقّي رسائل من القرّاء تحتوي على مشكلات أو فضفضة، وتقوم بالردِّ عليها في صورة خاطرة أو شعر، فكان هذا هو الجديد في هذا الباب عمّن سبقوها في الكثير من المجلات والصحف في هذا المجال.

***

-٢١-

بــازل

تتلقفني الغربة
يحيطني الفراق
يتلحفني القلق
ولكن..
لكلّ كبوةٍ وقفة
ولكلّ محنةٍ منحة
ولكلِّ عُسرٍ يُسر

في حياة كلٍّ منّا محطة وموقف، وتجربة ونجاح، وخفقات ويأس، وندم وأمل، وطموح، وصعود وهبوط. طالما ما زلنا على قيد الحياة؛ سنتعرض لكل هذا، ولكن على المتفائل، على المتأمل، على الطامح، على الناجح، على الواثق بربه، على المبصر بقدرته أن يجمع كلَّ نقطة بحياته، حتى تكون بحرًا يُبحر من خلاله بقارب التجارب، حتى يصل لشاطئ النجاحِ، فلنجمعها كما نجمع قطع البازل؛ لنكوِّن بالنهاية صورةً واضحةَ المعالم لقصة نجاحنا.

فمن هذا المنطلق أنشأت لكم هذا الباب من المجلة؛ حتى نجمع سويًّا قطعًا من بازل حياتنا؛ لنرى هل اكتملت صورة نجاحنا؟ أم أن هناك ما ينقصها من قطع أخرى حتى تكتمل الصورة؟ فلنجاهد في البحث عنها هنا وهناك. فسأنتظر رسائلكم على بريدي الإليكترونيٍ، وسأبحر معكم ببحرِ تجاربكم واستفساراتكم، وسأعطيكم حلولًا ولكنها ليست حلولًا جاهزة، فمن يعلمني كيف أصطاد سمكة خيرٌ من أن يعطيني إياها؛ لذا سأنِير لكم ومضةً على الطريق، وأكملوا أنتم سعيكم، واستكمالَ إنارته.

(صديقتكم: أم أبيها)

تجلَّت ابتسامتُه، وخلع نظارته المرتكزة على أرنبة أنفه، وارتكز براحتيّ كفّيه على مكتبه، وهمَّ واقفًا من مجلسه، وخرج من وراء مكتبه متَّجهًا لفاطمة لتُطلعه على مقدمة باب بازل، والتي انتصبت بدورها من كرسيها، وافتَرَّ ثغرُها عن ابتسامة وضَّاءة، وهي تسمع ثناءه على كلماتها ونشاطها الملحوظ بالقسم الجديد واعدًا إياها بمفاجأة، ستكون لها عوضًا عمَّا مرَّت به من أحداث.

***

بدأت تنهالُ الرسائل على البريد الإليكتروني الذي كانت تقرأه فاطمة بنفسها، وتخصص له وقتًا محددًا، وهو بعد أن تنهي واجباتها تجاه «كريم»، وينتهي يومُه بالنوم؛ فتبدأ تتفحص كلَّ رسالة باهتمام شديد، وتحاول أن تستخلصَ لها ومضةً على طريق الحياة.

فهذه رسالة فحواها.. «زوجة تشتكي من إهمال زوجها لها بعد مرور عشر سنوات من زواجهما، وهي تتحرج من أن تتطلب منه أن يهتم بها، وتريد أن يفهم هو ذلك بنفسه». واستكملت قائلةً: «إنها عفيفة، تكره أن يهتم بها أحدٌ غير زوجها، خاصَّة زملاؤها بالعمل؛ فالشيطان يسوّل لها أحيانًا، ولكنها تبارزه بالاستغفار».

فأجابت عليها فاطمة، قائلةً: إلى صاحبة رسالة العفة؛ عليك أن تبعثي بهذه الرسالة التي سأكتبها لك الآن على الهاتف النقّال لزوجك فقط، فسوف يفهم مغزاها جيدًا:

«اجعل دفء قلبك.. يقيني برْدَ الاحتياج»

***

أما هذه الرسالة التي جعلتها تبكي وهي تقرأها، فهي كانت لأب يشتكي من بقاء ابنته وحيدةً طيلة الوقت بحجرتها، ويستكمل قائلاً: وعندما أعود من العمل تحضر لي الطعام- فأمُّها مُتوفَّاة- وتجري على حجرتها، وإن كنا بأيام الأجازات تنام كثيرًا؛ مما جعلني أعنِّفها كلما رأيتها، إلا إنه من عدة أيام كنت عائدًا من العمل، فوجدتها تجلس مع إحدى الجارات، ولم تنظف المنزل؛ فقمت بتعنيفها أمام الجارة، التي تدخلت لتأخذها من بين يدي، وأنا أضربها. وبعدها، خرجت من المنزل، وعدت ليلًا لأجدها تتحدث مع أحد على الهاتف، ولم تشعر بمجيئي إلا عندما أمسكت هاتفها، وتيقنت أنها تحادث رجلًا، ولا أعرف كيف أحكي لك عما فعلته بها.. رغم تأكيدها لي أنها كانت تنهي ما بينهما من علاقة. والآن، لا أعرف سيدتي، كيف السبيل للتعامل معها؟

أجابت عليه، قائلةً: «لا تجعل قلبها كالأرض الجرداء، التي إذا نزل عليها الماء اهتزت والتأمت تشققاتها، حتى ارتوت، فاحذر قبل أن تصل إلى مرحلة الثمالة.. وبعد أن يتشبع ترابُها بالماء الآسن، وتصبح الأرض وحلًا.

«فاحذر.. أن تجعل من تَعُول تصل لمرحلة الأرض الجرداء».

❋ ❋ ❋

أما عن هذه الرسالة، فكتبت مختصرةُ المشكلة، قائلة: لماذا يتدخل الغير في حياتي؟ إن كنت تأخرت بالزواج بإرادتي، أم بغير إرادتي؟

أجابت، قائلة: عليك السعي على نجاحك بنفسك دون انتظار من يُعينك على النجاح.

ومن يسألك؛ عليك بهذه الإجابة: لم أجد من يحتلّ عقلي بإرادتي.

❋ ❋ ❋

-٢٢-

أين ذاكراتي؟!

وبعد مرور عامين.

تقف فاطمة بسيارتها أمام بنايتها، تنتظر «كريم» القادم من مدرسته، والذي التزمت المؤسسة الإعلامية بتكفل ٢٥٪ من مصاريفه؛ نظرًا لمجهود فاطمة بالنهوض بالقسم الأدبي كما وعدها رئيس التحرير بهذه المفاجأة.

كان الجو صحوًا، والسماءُ صافيةً، والساعة تشير إلى الثالثة ظُهرًا. موعدها عند ماجدة كلّ خميس ليقضيا اليوم سويًّا مع الأولاد بالتنزه في الحدائق والملاهي؛ ففي هذا اليوم من كلِّ أسبوع، يمكث «فوزي» بالبيت؛ ليضبط حسابات توظيف الأموال التي يقوم بها للمصريين المتواجدين معه بالعمل ومعارفهم أيضًا، ولكنه كان يقصر دائمًا في إعطائهم حقوقَهم كاملة؛ حيث كان- في كل مرة- يعدهم بذلك، ويقترض من أحدهم ليسد العجز؛ مما جعل «ماجدة» تنبهه كثيرًا بأن يترك هذا العمل؛ فالفوائد قد تعود علينا بغضب الله. ومن المحتمل أن يُسجن بالبلد بسبب عجز الأموال في كل مرة. هذا ما قالته له عندما طلب منها أن تتحدث مع فاطمة؛ لتقرضه منها مبلغًا ليسد به العجز، ولكنها قالت:

- إن السُحت نارٌ تأكل مَن حولها، وأول من تبدأ به صاحبها؛ فاحذر أن تستثمر في ذلك، وابتعد عن صديقتي، ولتعلن توبتك، وتستغفر الله عن هذه السوءة، ونبدأ صفحةً جديدةً مع الله بقدوم مولودنا الجديد.

– ومن أين يا هانم نصرف عليه، أما تعلمين أنه يزيد في المصاريف، فكيف تطلبين مني أن أترك هذا العمل؟

– إن تركنا الحرام، فسيضع الله لنا البركة بها عندنا.

ترك الغداء، وانتصب واقفًا، وألقى فوطة الطعام على الطاولة بعنف، قام وهو يشيح بيده، ومُهمْهمًا، ومتجهًا إلى حجرته. وما إن جلس مليًّا على فراشه، حتى سمع صوت صراخ «ماجدة».

***

لا تقلقي يا حبيبتي، هي ساعة ويُشَرف لنا أجمل طفل.

– أوصيك يا فاطمة إن حدث لي مكروه؛ أريدك أن تربي «ياسمينا»، لا تتركيها معه أرجوك.

قالتها، وهي مستلقية على فراش المشفى، وقابضة على يد فاطمة، التي انْحنت وقبّلت رأسها، ومسّدت على رأسها، وأدخلتها بحضنها، وهي تقول: لِمَ كلُّ هذا يا ماجدة؟ أنسيت «ياسمينا» أول ولادة لكِ!؟ فلا داعِ للقلق، اهدئي قليلًا يا عزيزتي، حتى يحين موعد الولادة.

***

– لقد تأخرت ماجدة بغرفة العمليات يا أستاذ فوزي.

قالتها فاطمة، وهي تدثر «كريم» و«ياسمينا» بعدما غالبهما النوم بالحجرة المحجوزة لماجدة.

– بالفعل لاحظت ذلك، ولا أدري ماذا أفعل؟ كلما سألت أحدًا يقولون: ستخرج بعد قليل.

وفجأة، سمعوا أزيزعجل سرير متحرك بالردهة المقابلة للحجرة، فخرج «فوزي» من باب الحجرةً مُسرعًا، فلم يجدها على السرير المتحرك. أُسقط في أيديهم، وبدأت ضربات قلب فاطمة تزداد،

وتوترُها يظهر، وهي تمسك بالمصحف من حقيبتها وتقرأ فيه، أما «فوزي» فقد وقف بالردهة راجيًا أن يراها تلِجُ حجرتها. ومرَّت الدقائق عليهما كالجبال، حتى جاء إليهم الطبيب. كادت تسقط فاطمة في وسط الردهة متعثرة؛ لتستمع إلى ما يقوله الطبيب الذي أخبرهم بأنه: بسبب انخفاض ضغط الدم والهبوط الشديد، الذي حدث لها أثناء العملية؛ فإن أجزاءً في المخ لم يصل لها الدم؛ فماتت بعض الخلايا، ودُمر البعض الآخر.

- لم أستوعب ما تقوله يا دكتور، لم أفهم!.

قالتها فاطمة، وقد تحشرجت حروفُها مع نحيبها.

- سأتحدث معكم باستفاضة بعد أن تذهبا لحجرة الرعاية، وتتحدثا معها.

تهيمُ على وجهها، وهي تعرج تجاه حجرة الرعاية، توتَّدت قدمها الأرض فقد شاهدت حياتهما معًا تُعرَض أمامها، وكأن باب الحجرة تحوَّل لشاشة عرض كبيرة، ولم تنتبه إلا عندما أمسكت الممرضة بمرفقها؛ لتنبهها قائلة لها:

- هيا، لتدخلي الآن يا سيدتي؛ لأن الطبيب يريدكما بعد ذلك.

استبقَها قلبُها قبل جسدها في الدخول للحجرة، لاح على وجهها الذعرُ والشفقة، تمنَّت لو كانت هذه أضغاث أحلام، بل لو حتى كان كابوسًا أيًّا كان!، فقط تريد الإفاقة منه، ولكن الحقيقة تتجسد أمامها بذعر عيون ماجدة، كلما قدمت عليها فاطمة التي أمسكت يدها، ومسّدت على رأسها؛ لتطمئنها، ولكن عَبراتها انسكبت على وجنتيها حينما قالت لها ماجدة، بخوف:

- من أنتِ!؟

واتسعت حدقةُ عينيها حينما سمعت «فوزي» الذي يقف وراء فاطمة، قائلًا:

– ماجدة، أنا «فوزي» زوجك، ألا تعرفينني؟!

واقترب يربت على كتفيها، ويطبع قُبلةً على ناصيتها، لكنها تدير وجهها بالاتجاه الآخر، وتصْرخ كالطفل، وتبكي كالتائه، وهما يحاولان تهدئتها، حتى يدخل الطبيب والممرضات، وطلب منهما أن ينتظرانِه بمكتبه.

***

-٢٣-

ينفطرُ قلبي

صديقتي
رفيقة العمرِ التي أحببتها
ومنحتُها كلَّ الأماني
والتسابيحَ الأصيلة
هل تذكرينَ لقاءنا
هل تذكرينَ الأمنيات
هل تذكرينَ مقامنا
عند الشواطئ
نقتفي أثرَ المحبة
نصطفي أحلامنا
والأغنيات
كنا كرَوْحين احتوانا
قلبُ عالمنا الشفيف
عيناك كانت فيهما
كلُّ السجايا
كلُّ ألحان المساء
والآنَ يا طيفي الحنون
إني أراك بغربةٍ حمقاء
تأكلُ ما تبقى من حطام
إني سأطرق باب أيامي القديمة
هيا افتحي بابَ التذكر

واذكري أيامنا
سأذوب فيك تعشُّقًا
وأراود الهمَّ الذي
يثوي بقلبك مرغما
فعسى يغادرنا ويرحمُ ضعفنا
هيا رفيقةَ دربي المسكون
بالوجع المعبَّأ بالأنين
هيا افتحي للذكريات
وقاومي غيْم التشَتُّت
حين داهمنا بنسيانٍ لعين
الآنَ أنت قضيتي
وتوَهُّمي وحقيقَتي
وتشاغُلي وسَكِينتي
الآنَ أعزف لحنك
المنثورَ عند حديقتي
فتهيم روحانا بها
ونعيد ذكرانا الجميلة
في خميل بديعتي
وترنُّ فَي الآذان
أحلامُ الصبا
لتطوفَ أركاني
بوجدِ طفولتي
يا طفلَتي

مهما تباعدنا

فأنت لديَّ أصلُ حكايتي

بهذه الكلمات الشاعرية، سطَّرت فاطمة عمودَها الأسبوعي. بعد أن أعطت لماجدة الدواءَ، واطمأنت أنها نامت؛ أغلقت إنارة الحجرة، وأوصدت الباب، ثم ولجت لحجرة «كريم»؛ حيث تنام معه وياسمينا والمولودة الجديدة «أريج»، كما كانت تريد أن تطلق عليها «ماجدة» هذا الاسم قبل أن تفقد ذاكرتها. ولكن الطبيب نصحهما بعرضها على طبيب مخ وأعصاب، والذي أكد عليهما بعد فحصها أن الخلايا التي دُمرت من الصعب أن تُستعاد مرةً أخرى، وعليهما بتقبّل الوضع والتعايش معه.

❋❋❋

تركت «فوزي» وترجلت تهيم بشوارع «دبي»، لا ترى فيها جمالًا كما كانت تراه من قبل وهي تسير مع ماجدة، ترى المارَّة أشباحًا، تنظر للسيارات فتجدها كالسلحفاة تسير ببطء؛ مما عرضها للتوبيخ أكثر من مرة من سائقي السيارات الذين كانوا يتفادونها وهي تسير ببطء أمامهم، لا تفكر إلا في شيء واحد هو: كيف السبيل للخروج من هذه الأزمة؟ لا بدّ من حل، لكل داء دواء، لن أترك ماجدة هكذا. وهنا، جالت بخاطرها فكرة، دسَّت يدها بجيب عباءتها، وأخرجت هاتفها، واتصلت بفوزي وأخبرته بما جال بخاطرها.

❋❋❋

رحَّب بها الجميع لما كانوا يسمعون عن إنجازاتها، فتشوقوا لرؤيتها، فها هي تقف كالحائرة في وسطهم بابتسامة يعلوها القلق، لا تعرف من أين تبدأ، ولكن حزمت أمرها وتوكلت على ربها، واستأذنت رئيسَهم بالعمل أن تجتمع معهم لمدة دقائق، فوافق

ورحَّب بها في قسم التحقيقات بالمجلة، خاصةً بعد ما علم منها هدفها من اجتماعها بهم، وبدأت حديثها إليهم أنها تريد إعادة الحياة لأعز صديقاتها، بل تعتبرها أمَّها في أحيان كثيرة، وهي الآن كابنتها التي لا حول لها ولا قوة، ثم بدأت في شرح ما حلّ بصديقتها من أزمة مرضية. وبعد انتهائها من الشرح، طلبت منهم التالى: فتح تحقيق عن هذا المرض، ومعرفة إن كان لهذا المرض علاج بالداخل أو الخارج، وكيفية التعامل مع المريض.

تضامن الجميعُ معها، وظهر الحماس باقتراحاتهم، والتي أنارت لها طُرقًا جديدة للبحث.

* * *

- لا تتفوهي بهذا الكلام أمام والدة ماجدة يا رقية، وسنبحث عن مخرج لذلك حتى لا تقلق أمها.

- وهل لا يوجد لها علاج إطلاقًا يا فاطمة؟

- لكل داء دواء يا رقية، ولكننا لم نعرفه بعد.

- فكيف تسير حياتكم الآن؟

أخذت شهيقًا عميقًا، وهي تقول:

- تبدلت أحوالنا، فماجدة وياسمينا وأريج يمكُثْن عندي.

وفوزي يأتي كل يوم؛ ليحاول أن يجعلها تألفه كما نصحه الأطباء، ولكنها رافضة تمامًا بعد أن عرفتني، وتعودت عليَّ فهي لا تريد أحدًا غيري، ونسعى معها للتعرف على زوجها «فوزي» دون ضغط عليها.

- حبيبتي يا فاطمة، فالحِمل أصبح ثقيلًا عليكِ.

-هذا أقل القليل مما قدمته لي ماجدة؛ وأما بالنسبة لأعمال المنزل وتربية أريج فقد أحضر «فوزي» لنا مُربية تمكث معنا بالبيت، وخاصةً إنني لا بدّ أن أتواجد بالعمل صباحًا.

واسترسلت في حديثها:

– هيا أخبريني عن أحوالك، لقد كنت مُقصرة معك الفترة الماضية.

– لا جديد سوى أن عملي كمعيدة بالإضافة إلى حصولي على درجة الماجستير مرهقٌ للغاية، فكلاهما يحبذ التفرغ، ولكنني أجاهد كسلي وإرهاقي هذا حتى أحصل على درجة الدكتوراه أيضًا.

– إذًا فما زلت لا توافقين على مجيئك هنا؟

– لكل منا مستقبله يا فاطمة، أعلم أن فرصة الدراسة والبحث عندك أفضل، لكن هؤلاء الطلبة من يبقى لهم إذا ما حلّقنا جميعًا خارج السرب، وأصبحنا طيورًا مهاجرة؟ أتعلمين يا فاطمة أني أجدُ بين طلابي من هم قادرون على أن يكونوا من القيادات؟ لذا حاولت أن أفعل لهم شيئًا، وهو تقسيمهم لمجموعات يترأس كل مجموعة طالبٌ، من أجد فيه روحَ القيادة، وأحثهم على ضرورة خَلق فرص عمل قبل تخرجهم؛ فطالب الإعلام يجب أن يكون مختلفًا، فهو من سيكون صحفيًّا، ويثق به الآخرون، ومنهم من يكون إعلاميًّا ينطق بصدق الكلمة، وهكذا دائمًا أحثهم على المثابرة في طلب العلم والارتقاء بالتفكير.

– أنا فخورة جدًّا بك يا صغيرتي وأنت تتحدثين الآن، أتذكرك كم كنت لبِقَة الحديث وأنت صغيرة.

* * *

-٢٤-

لكل داء.. دواء

استيقظت فاطمة على رنين هاتفها النقَّال، والذي كان بمثابة اندهاش لها، فهذا هو يوم الراحة بالنسبة لها من المجلة الذي منحه لها رئيس التحرير من كل أسبوع؛ للقيام على شئون ماجدة. وها هو رئيس التحرير يصرُّ على الاتصال، ساورها القلق وهي تقوم بالرد عليه، فهو لم يفعلها من قبل. وبعد أن بادرها التحية، أخبرها بضرورة مجيئها للمؤسسة في التوِّ واللحظة، ولم يخبرها عن أيّة معلومة تهدأ من قلقها، معلنًا لها شرحَ كلِّ التفاصيل عندما يلتقيان.

فقامت من فراشها وهي تنظر لماجدة النائمة بجوارها بعد عناء ليلة قضتها وهي تحاول معها أن تتعرف على بعض الأشياء، التي تستخدمها يوميًّا، وتتحرك بين الحجرات بسهولة بعدما طمأنهم الطبيب على صحتها بعد عملية الولادة، وقبل النوم تشبثت ماجدة بيدها؛ لتنام بجوارها كالطفل الذي يهدأ ويشعر بالأمان بحضن أمه؛ فقضت ليلتها بين أريج النائمة بحجرة كريم وياسمينا، وبين ماجدة، ولم تنل قسطًا من النوم إلا بعد ذهاب ياسمينا وكريم للمدرسة ومجيء مُربية أريج.

***

ارتدت على عجل ملابسَها، وأوصت المُربية بألا تزعج ماجدة، وأن تتركها نائمة حتى تعود، وطلبت منها إعداد فنجان من القهوة، والذي لم يفلح في إفاقتها بعض الشيء إلا عندما سمعت من رئيس التحرير ورئيس قسم التحقيقات اللّذين كانا يلتفان على الاجتماعات بالمؤسسة في انتظارها، وما إن اكتمل ثلاثتهم حتى تحدث إليها رئيس

التحرير مفجّرًا بأذنها قنبلة كانت كفيلة أن تنجح في انتزاع انتباهٍ تفوق بالعشرات من أقداح القهوة، حينما قال وهو ينظر لها:

– لقد تابعت ما تم طلبه من قسم التحقيقات منذ شهر، وحزنت كثيرًا أنك لم تخبريني بذلك.

تنحنحت فاطمة، وهي توزّع نظراتها ما بين رئيس التحرير ورئيس قسم التحقيقات الذي غيّر اتجاه نظرته لرئيس التحرير، وهي تقول:

– الأمر يا سيدي لا يستدعي إزعاجك، وتبليغك به، فلقد كانت محاولة مني للمساعدة في شفاء صديقتي.

قاطعها عندما شعر بخجلها، فقال:

– الأمر ليس به إزعاج، ولكننا هنا أسرة واحدة نقف بجوار بعض، فمن جُرح نضمّد جراحه حتى تلتئم.

ثم أشار لرئيس قسم التحقيقات؛ ليتحدث. والذي بدوره فتح ملفًّا أمامه، وابتسم، وقال:

– بعدما تناقشنا من شهر بخصوص هذا الموضوع، اجتمعتُ بأفضل ثلاثة شباب على دراية بالأبحاث العلمية. لقد كان الموضوع بالنسبة لي بخلاف إنه إنساني بحت، إلا إنه شكّل لي عنصرًا من الغموض، والذي آثار فضولي الصحفي لمعرفة أصوله، ولا أطيل عليك فقط، سأقص عليك الخلاصة؛ لقد وجدنا بالفعل أن هناك أشخاصًا مَرِضوا بنفس مرض صديقتك؛ وأن نسبة الشفاء منه لا تُذكر.

لاح على وجه فاطمة الحزن، لكنه استطرد قائلًا: لكن، أثناء البحث وجدنا أن هناك طبيبًا انجليزيًّا قام بإجراء أبحاث، واستطاع أن يصل لعقار يغذّي الخلايا الضامرة التي تعاني منها صديقتك،

ويعيد لها نشاطها مرةً أخرى؛ وهو الآن يجهز لمجموعة من المتطوعين؛ ليجرّب عليهم العقار الجديد. وقد تم التواصل معه ليضم صديقتك لهذه المجموعة، ولكن بشرط إذنٍ من ولي أمْرها، باعتبارها فاقدة للأهلية.

تنفست الصعداء، وانفرجت أساريرها، وهي تقول:

- إذًا سأتصل الآن بزوجها، وأبلِّغه بهذه الأخبار السارة.

***

- لا أرضى أن أضع ماجدة تحت الاختبار.

قالها «فوزي» وهو يجلس بالكرسي المواجه لكرسي فاطمة، والذي يفصلهما مكتبها الأنيق الذي انبهر به عند ولوجه حجرة مكتبها بالمجلة؛ واستطرد قائلًا: فلقد رضيت بقضاء الله.

- لكن يا أستاذ «فوزي» طالما وجدنا الدواء؛ لِمَ نمنعه عنها؟

قالتها، وهي تخرج من وراء مكتبها لتجلس على الكرسي الذي أمامه، واستطردت، قائلة:

- استخر الله يا أستاذ «فوزي»، ولنبدأ في الإجراءات؛ لأن- للأسف- آخر ميعاد للالتحاق بالمجموعة غدًا، وإن تعرقَلَ الأمرُ؛ فلن نكمل، وإن وجدنا الأمور سلسَةً بسيطة؛ فلنكمل على بركة الله.

قالها بعصبية، وهو يهمُّ بالوقوف، قائلًا:

- اعلمي أنني لن أرضى عن ذلك، ولكن افعلي ما شئتِ، وأنتِ المسئولة أمامي.

لم تعرِ الكلمةَ الأخيرة بالًا؛ فقد أخرجت له استمارة من ملف كان أمامَها على المكتب، وهي تشير له بالجلوس، وتعطيه الاستمارة، قائلة:

– تفضّل، هذه استمارة الانضمام لمجموعة الطبيب الإنجليزي، أتمنى أن تملأها حتى أتمكن من إرسالها اليوم.

– أشار إليها كيف جئت بها؟ ألم تقولي إن الطبيب إنجليزي؟

قالها بعين متشككة ماكرة.

– نعم إنه بالفعل كذلك، ويقيم بألمانيا، ولكن فريق البحث عندما راسلوه؛ بعث لنا بها عن طريق الفاكس، وسنعيد إرسالها بعد توقيعها.

قالتها، وهي تعطيه قلماً، وتحثه على ملء الاستمارة.

– تفضلي الاستمارة؛ ولكن تذكري أنك المسئولة أمامي.

– ماجدة أختي وصديقتي، واعلم أني لو كنت أعلم أن بالأمر ضررًا عليها؛ لكنت أول من رفض ذلك؛ ولكنه الأمل والدواء؛ فلكل داء دواء.

***

-٢٥-

رحلة يغمرها الأمل

تقبع وراء مكتبها شاردة قلقة؛ فقد مرَّ شهر ولم يظهر أي تحسُّن بحالة ماجدة، كما كان يعلمها الطبيب أن الحالة ستتحسن، وستعاد لها الذاكرة خلال شهر من العلاج؛ لسان حالها يقول: أصِدقٌ حدس فوزي؟!

أمسكت بهاتفها النقال، واتصلت برُقية لتخبرها عمَّا يجيش بصدرها؛ والتي بدورها تساءلت:

- ولماذا يا فاطمة لم تأخذي كلامه محْمَل الجد؟

- ظننت أنه يفعل ذلك؛ لأني رفضت أن أقرضه مبلغ مائة ألف جنيه؛ لأن ماجدة كانت تحذرني منذ أن أتيت هنا أن أقرضه، أو أعطيه أي مال؛ لأنه دائم الخسارة، وهذا المال لا يخصني وحدي، بل يخص «كريم» أيضًا.

- وماذا كان ردة فعله هذه الأيام، وخاصة إنه لم يرَ على ماجدة أي تحسُّن؟

كان موقفه غريبًا للغاية، بعد ما كنت في الماضي أتصل به كثيرًا ليأتي لماجدة بانتظام، كما قال الطبيب حتى تألفه وتتعود على رؤيته؛ أجده بعد ما علم أني بدأت رحلة العلاج معها يصِرُّ على التواجد كلَّ يوم، بل ويعطِهَا الدواء بنفسه.

- هل أشرفت على إعطائه إياها الدواء بانتظام؟

ساور الشك قلب فاطمة، وهي تجيب:

- لا لم أره، فأنا أضع لهما الطعام وأتركهما، وأجلس بحجرة «كريم» وقت تواجده؛ ماذا تعنين؟!

- نعم، أعي ما فهمتِ.

- إذًا، فمن اليوم سأراقبه لأعلم هل يعطيها الدواء أم لا؟ حتى أعرف لمَ لا يريد لها الشفاء.

❋ ❋ ❋

بعدما وضعت الطعام على الطاولة، أدلفت للشرفة، وأوصدت بابها جيدًا ترقبت «فوزي» من وراء زجاج الشرفة، وهو يطعم ماجدة؛ وكأن خنجرًا طعنَ بظهرها عندما رأته يلقي بحبوب العقارِ في سلة المهملات. كادت تفقد عقلها، وهي تحادث نفسها قائلة: ولمِ يفعل هذا؟! وبعد أن دخلت «ماجدة» لحجرتها، وانصرف «فوزي» من الشقة؛ خرجت فاطمة من الشرفة تتلفظ أنفاسها التي كادت أن تختنقها من حبستها لها.

❋ ❋ ❋

- وما هو الإجراء الذي تنوينَ أن تأخذيه تجاه فوزي؟

- بل اتخذت بالفعل يا رُقية عدة إجراءات؛ اتصلت بالفريق الخاص الذي يتابع حالة ماجدة، وطلبت منهم تغيير مواعيد جرعات العقار بحيث يكون صباحًا بدلًا من الأوقات، التي يأتي فيها فوزي؛ فكلما يأتي يجدني قد أعطيت الدواء بالفعل لماجدة؛ وأصبحت أجلس معه أنا والأولاد، ولا أجعله ينفرد بماجدة؛ فأنا لا أعرف بُغيته من ذلك؛ وسوف أنتظر حتى ينتهي الشهر لأرى النتيجة التي أشعر أني أتلمسها في ماجدة بين الحين والآخر، لذا ففي أوقات كثيرة، أجعلها تنام قبل مجيء «فوزي» حتى لا يلحظ التغيرات التي تطرأ على ذاكرتها؛ قطع كلامهما اتصالٌ على الخط الآخر لتزداد دهشتها؛ فالمتصل هو «فوزي» والذي أخبرها بأنه يريد أن يقابلها بعيدًا عن ماجدة، حتى وإن كانت لا تعي ما يدور حولها.

❋ ❋ ❋

مرت الساعة قبل الميعاد المتفق عليه مع «فوزي» بمكتبها بالمجلة كأنها دهرٌ، تروح وتجيء أمام نافذة الحجرة؛ فالقلق يحوم فوقها، وينعق بعقلها؛ فهي لا تدري ما الذي يخبئه فوزي!؟

– لم أصدق ما تقوله يا أستاذ فوزي.

قالتها وهي تنتصب من مجلسها أمامه بالمكتب عندما عرض عليها الزواج؛ واستطردت قائلة، وهي منفعلة:

– أتريد أن تتزوج صديقة زوجتك؟ وماذا عن زوجتك التي كافحت معك؟! ألم يكن لها مكنونٌ في صدرك؟! ألم تعِ كيف سيكون شعورها آنذاك؟

قام من مجلسه بهدوء، ولم يبالِ بتلك العاصفة التي أهبتها عليه فاطمة، وكأنه كان يعرف مسبقًا ردَّ فعلها على عرضه هذا؛ ترجَّل عدة خطوات باتجاه طاولة الاجتماعات بمنتصف الحجرة. أزاح كرسيًّا ببرود، وجلس عليه ثم نظر إليها يدعوها للجلوس، وهو يشير إليها قائلًا:

– هيا تعالي اجلسي نتكلم بهدوء، بعد ما تركتك تعبري عن كل ما بداخلك من انفعالات، فلقد كنت أعلم أن هذا هو ردُّ فعلك.

تنظر له باستغراب، وهي محملقة العينين فيه، وقد أسرها الصمت من هوْل ما سمعت منه، ثم عادت لتجلس على مكتبها، وأمسكت ببعض الأوراق تتفحصها وقالت، وهي ناظرة لأوراقها:

– أستاذ فوزي، بإذن الله تعالى بعد أيام قليلة ستبرئ ماجدة من مرضها؛ وستعود لبيتكم وأولادكم، وتعودون أسرة كاملة كما كنتم.

قالتها، وهي تنظر له، وتركز ذقنها على قبضة يدها اليمنى، مرتكزة بمرفقها الأيمن على سطح مكتبها؛ مما أعطاها شموخًا وتحدّيًا.

- أنا لا أوافق على استكمال العلاج، وسآخذها مع الأولاد، وأحضرِ مُربيةً لهم.

جال بخاطرها فكرة، تنهدت وقالت:

- إن ما تقوله سيزيد عليك المصاريف، وأنت كما قلت لي من قبل تمرُّ بضائقة مالية؛ ولكنني فكرت منذ فترة أن أعطيك مبلغًا توظفه، وبعد أن تخرج من ضائقتك المالية؛ فسأترك لك ماجدة والأولاد؛ فما رأيك؟

- إذًا، أعتبر عرض الزواج مرفوضًا؟

- امنحني مهلة من الوقت، ولكن لا تزورنا طالما هناك نية للزواج.

- ولماذا كلُّ هذا فلا أحد يلومك إذا كنتِ لا زلتِ مُصرة على رفضه.

قالتها رقية عندما اتصلت بها فاطمة؛ لتخبرها عمَّا حدث، والتي أوضحت لها قائلة: - أخاف أن تنتكس ماجدة إذا ما نفَّذ ما يقوله، وأخذها لبيته، وسيمنع عنها الدواء، بالتأكيد فمن المحتمل أن تنتكس ولا أستطيع وقتها مساعدتها؛ فهي تقدمت تقدمًا هائلًا، ولا أريد أن أعلمه بهذا التقدم؛ لذا منعته من الحضور.

- وهل أعطيته بالفعل مالًا؟

- لقد أعطيته عشرين ألف جنيهًا؛ فهذا مبلغ زهيد إذا ما غامرت به مقابل شفاء ماجدة.

- لقد سعدت جدًّا بسماع تلك الأخبار عن ماجدة؛ إذًا فهناك أمل.

- رحلة العلاج يا رقية لا بدَّ أن يغمرها الأمل.

* * *

-٢٦-

رحيل

كانت الفرحة تغمرها وهي تستعيد بعض ذكرياتها بصعوبة بالغة بعد تناولها للعقار والتدريب المستمر على بعض العمليات الحسابية، ومشاهدة بعض صورها القديمة العائلية.

ولأول مرة، تحتضن ماجدة «أريج» بحضن الأم المشتاقة، كما يشتاق البحر لدفءِ أحضان الأمواج، وتشم رائحتها كرائحة زهور البيسان، وتتلمس ملامحها البريئة كمن يتلمس بتلات الزهور بالربيع بعد طول غياب وراء الشتاء؛ تهمس بأذنها بهمهمات العشق الطفولي، وتضع حبات الأصابع اللؤلؤية بين شفاهها تضمها أكثر وأكثر بين حنايا قلبها، وتمسّد على ليل شعرها، فيضيء قمر وجهها كما يضيء القمر بليل السماء الحالك.

***

كانت القاعة تضج بالحاضرين، وقد اشرأبت إليها الأعناق، وهي تجلس على منصة الاحتفال بإصدار ديوانها الثاني الذي تقيمه لها المجلة؛ أعلنت عن فرحتها الكبرى باستعادة رفيقة دربها ذاكرتها؛ والذي قُوبل بالتصفيق الحار الذي صوحب بانتصاب الحاضرين، الذين وجَّهوا أنظارهم لماجدة التي كانت جالسة معهم بالصف الأول. والتي أشارت لهم بيدها اليُمنى وبيدها اليسرى تزيح شلالات عَبراتها.

في هذه اللحظة، صعد «فوزي» للمنصة، ووقف بمواجهة فاطمة، قائلًا بغضب:

– لمَ لمْ تخبريني بهذا من قبل!؟

- كنت أود أن أفاجأك بهذا الخبر السار كما وعدتك، وستعود معك ماجدة للمنزل بعد الحفل؛ ولكن عليك أن تذهب لها الآن؛ لتهنئها، وتبقى بجوارها.

كانت عيناه تحملق بغضب تجاه فاطمة، وصرير أسنانه يكاد يفجّر فمَه من شدته، وانتفخت أوردته، وكثُر زفيره الذي يكاد يطيِّر من يقف أمامه، وهو يقول:

- لم أعد بحاجة لها الآن، فلتمكث معك طيلة عمرها.

وتركها، وتبعته بنظرها؛ فاختفى وراء المهنئين لها الذين توافدوا على المنصة للحصول على توقيعها على الديوان الشعري.

***

تنظر يُمنة ويُسرة ولكنها لم تجده، تذهب هنا وهناك؛ تبحث بين الطاولات تلهث وهي تعدو لخارج القاعة، وما إن وجدت أفرادَ أمن، واقتربت منهم تسألهم، والذين لاحظوا على وجهها علامات الذعر والقلق وهي تسألهم بصوت متلهف:

- هل رأيتم طفلًا يبلغ من العمر سبع سنوات، يرتدي قميصًا أبيض وبذلة سوداء ورابطة عنق قرمزية اللون؟ أجابها الجميع باهتزاز رأسهم وقولهم بالنفي؛ أسقط في يدها، وأسندت ظهرها على الحائط المجاور لها، وهي تقول: يا الله، أعد لنا كريم كما أعدت لسيدنا يعقوب سيدنا يوسف، وأخذت ترددها حتى جاء رجل من بعيد أثارت فضوله تلك الكلمات، التي كانت تدعو بها، وهي تنتحب، واقترب من أفراد الأمن سائلًا إياهم حتى علم منهم، فاقترب منها قائلًا: سيدتي لقد رأيت الولد يخرج من باب الفندق يصطحبه رجل، فقد جذبت انتباهي ملابسُ الطفل الراقية.

توقفت عن النحب قليلًا، وهي تصغي لما قاله الرجل؛ حيث استطرد قائلًا: لقد كان الرجل طويلًا ونحيفًا، يرتدي سترة زرقاء اللون.

هرولت لخارج الفندق، وكان باصطحابها أفرادٌ من الأمن، والذين بدورهم سألوا زملاءهم من أمن البوابة الخارجية؛ حيث أشار أحدهم أن رجلًا بهذه المواصفات استقلَّ سيارة أجرة.

تضيء وتنطفئ شاشة هاتفها المحمول، وهي لا تعطي لها بالًا؛ فقد كان الحاضرون يشكّلون حولها طوقًا دائريًّا يبعث بالمحبة والفرحة بعيونهم، وكل منهم يبادلها عبارات التهنئة.

ولم تجد بُدًّا من كثرة اتصال الهاتف، إلا أن تستأذنهم بالرد على الهاتف، والتي ما إن وضعته على أذنها حتى صرخت هاتفةً باسمه:

– كريم، كريم.

وفي هذه الأثناء، كانت ماجدة قد اقتحمت هذا الطوق، وهي تخبرها بأن رجلًا يرتدي سُترة زرقاء اصطحبه خارج الفندق، انتبه الحاضرون لما قالته ماجدة وسمعت همهماتهم عن من هو الذي كان يرتدي بذلة زرقاء؟

يتابع رئيس التحرير وأحدُ زملاء فاطمة بالمجلة شاشات كاميرات المراقبة؛ فيرى كريمًا يمسك به رجل، ولكن المثير لدهشتهم أَن «كريم» يسير معه بسلاسة وحب؛ أمر باستدعاء فاطمة، والتي ما إن رأت الرجل حتى صرخت قائلة:

– لماذا؟ لماذا يا فوزي؟

جاءها الردُّ عبر رسالة أعلن عنها هاتفها المحمول، والذي أمسك به رئيس التحرير وهو يقرأها مرة أخرى بعد أن قرأتها فاطمة بعيونها

التي تقرحت من البكاء، وكانت فحواها.. «أريد مبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيهًا لإعادة ابنك لك، ولا تبلغي الشرطة إذا أردتِ سلامة ابنك، وسأرسل لك رسالة أخرى بالمكان والميعاد الذي سأعطيك فيه ابنك مقابل المال».

- لا تنزعجي سيدتي؛ فنحن سنقوم بكل الإجراءات.

قالها رئيس التحرير، وهو يحاول أن يهدئ من روعها، وهي تحاول إفاقة ماجدة التي صدمت في زوجها، فعينها على ماجدة، وقلبها يحلق بسماء دبي ليبحث عن كريم.

- لا أريد إبلاغ الشرطة سيدي، سلامة ابني أهم من أي شيء.

- لا تقلقي؛ فنحن لنا اتصالات ومعارف سوف تنعمين بحضن ابنك بعد قليل. وهنا قطع كلامهما الرسالةُ المنتظرة من «فوزي»، ارتجفت يدُ فاطمة وهي تفتح الرسالة؛ فسقط الهاتف أرضًا من يدها؛ فانحني رئيس التحرير ليلتقطه، وفتح الرسالة، وعلِمَ بفحواها، وخرج على الفور من القاعة.

فاقت ماجدة، وهي تهزي: أحقًّا ما سمعته؟ أحقًّا ما سمعته؟ لا أصدق، إنه مال السُّحت الذي هوى به بالوحل، ثم أمسكت بكلتا كَفَّي فاطمة التي كانت تقف أمامها وتحتضنها، وقالت لها:

- سامحيني يا حبيبتي؛ فإني من الآن أتبرّأ منه؛ لا أريد أن أظل بعصمته.

***

لم تبرح فراشه إلا بعد أن هدأ وغطّ في سبات عميق، فكانت ليلةً عصيبةً على «كريم»، انتهت قُبيل شروق الشمس بعد أن أمسك زملاء فاطمة بفوزي وأرغموه على إطلاق سراح «كريم»، وتهديده

بإبلاغ الشرطة إذا ما لم يطلق ماجدة؛ فاستجاب على الفور خوفًا من أن تضاف قضية أخرى له من قضايا النصب المرفوعة عليه.

❋ ❋ ❋

– سأحضر إلى مصر قريبًا، ولكما عندي مفاجآت عديدة سوف أخبركما عنها بعد أسبوعين من الآن.

قالها رئيس التحرير، وهو يودِّع فاطمة وماجدة بالمطار، بعد إصرارهما على العودة إلى مصر.

❋ ❋ ❋

-٢٧-

تغير مفاهيم

تجلسان بشرفة بيتهما بشارع الزهور بالمعادي، كانت ساعة العصاري توشك على الرحيل، كما ترحل الهمومُ بحلول الأفراح كالنسيم الذي يرفرف حجابَ فاطمة وماجدة، وكأنهما يريدان منه أن يساعدهما على الطيران؛ ليحلقا بالسماء ليناجيا ربَّهما أن يزيلَ همومهما، ويفرج كربهما طيلة الستة أشهر الماضية منذ عودتهما لمصر؛ حيث أصرت فاطمة أن تبتاع شقةً بعيدةً عن حي الجمالية، التي كانت تسكن به حتى لا يتعرض «كريم» لأي أذًى من أهل والده، أو طليق ماجدة التي سكنت معها بناءً على إصرار فاطمة حتى تبعدها عن أي أذًى من فوزي، واكتمل رابعتهم بوالدة ماجدة التي جلست معهن بالشقة بناءً على طلب رقية التي قالت، وهي تقدم لهن أقداحًا من مشروب «النسكافية «:

– أريد أن أحادثكم في أمر يهمني.

– كبرتي يا «روقة» وتتركيني وتتزوجين.

قالتها فاطمة، وهي تقوم من مجلسها؛ لتطبع قُبلةً حارة على جبين رُقية، وتحتضنها.

– هل أنت تقرئين ما بخلجات نفسي يا فاطمة؟! كيف علمتِ أن هناك رجلًا يطلبني للزواج؟!.

– ألا ترين بريق عينيك، وابتسامة ثغرك- وأنت تتحدثين- واحمرار وجنتيك.

– هيا اسردي لنا يا رقية؛ فكُلي شوق لأن نسعد ونفرح بعد كل ما حدث لنا في الفترة الماضية من أحداث، ولولا وجود أريج وياسمينا لكانت حياتي قاتمة.

جلست أرضًا عاقدة ساقيها أسفل منها، وقالت:

- سأقص عليكن القصة من البداية: «كنت أقوم بعمل ورش للمناقشات بين الطلاب في أحد الموضوعات، التي تهم المجتمع. وكانت المناقشات تثرى بأحد الطلبة الذي فاق بثقافته ووجهات نظره اهتمامَ الطلاب، بل احترامهم له، وجعله قدوة لهم؛ فهو يبدو عليه الاحترام والإجلال، يلتف حوله الطلبة كأنه مدرس يدرِّس لطلابه، علمت بعد ذلك أن من يكون لديه مشكلة يلجأ إليه ليساعده في حلها، عندما أتحدث معه أثناء المناقشات لا أجد نفسي أتحدث إلى طالب عندي بل إلى رجل ناضج يمتلك زمام الأمور، أعجبت بتلك الشخصية، وتمنيتُ لو أن جميع الطلبة مثله؛ لكان لخريجي الكليات شأن آخر؛ ولكنه التميز والتفرد الذي يهبه الله لمن يريد.

جاءني في يوم بمكتبي بالكلية يناقشني في أمر من أمور السياسة، أبهرني بسعة أفقه ونظرته الثاقبة والمستقبلية للأمور، وبعد أن أنهينا النقاش، وجدته يحاكيني بكلمات صريحة تنبأ عن معنًى واحد لها دون التفاف أو تورية، قائلًا:

- لقد نويت أن أكمل نصف ديني؛ فما رأيك أن تكمليه معي؟ فاجأني بهذا الطلب وأخرجني من دهشتي باستطراده قائلًا: أعلم أن هناك فارقًا بيننا في العمر، ولكنه ليس فارقًا في العقل، وأعلم ما يكن في عقلك من أسئلة؛ فسأجيبك عليها كلها بدون أن تتفوهي بها.

في المرحلة الإعدادية، قرر والدي أن أعتمد على نفسي، رغم أن الحالة المادية لنا كانت فوق المتوسط، ولكنه قرر أن يصنع مني رجلًا يُعتمد عليه، خاصة أني أكبر أخواتي الأربعة، فزَجَّ بي لأكثر من عمل؛ لأستزيد من الخبرات، مثل: البيع والشراء، وورش إصلاح أعطال الأجهزة الكهربائية، ومراكز صيانة الأجهزة الإليكترونية، والمكتبات العامة، والتي منها أحببتُ القراءة كثيرًا، وبعدها مندوب

مشتريات بأحد المستشفيات الخاصة، والذي أتاح لي الفرصة أن أتعلم التمريض من بعض أصدقائي من الممرضين هناك، ثم انتقلت موظفًا بالاستقبال بأحد فنادق الإسكندرية، والذي زاد من خبرتي بالتعامل مع الناس، وامتصاص غضبهم، وسرعة البديهة لحل المشكلات الطارئة، وتعلمت الاعتماد على النفس، ذلك بالابتعاد عن الأهل فترة الموسم الصيفي.

إلى أن قمت بافتتاح مشروع صغير من مدخراتي، وهو مركز لتعليم الحاسب الآلي، وتمكنت بعد نجاح هذا المشروع أن أحجز شقة للزواج بالقسط، وما زلت أعمل بجوار الدراسة، والتي تشكل ثُلثًا من اهتماماتي؛ حيث إنني أشرع لألتحق بعدة دورات تدريبية في مجالات مختلفة من الدراسات.

– لقد انتهيت يا سادة من إلقاء ما سرَدَه عبدُ الرحمن اليوم على مسامعي؛ فما رأيكن؟ قالتها رقية وهي تتفحص عيونهن الحائرة، ووجوههن التي لاحت عليها الدهشة ما عدا فاطمة، التي رسمت ابتسامةً وضّاءةً على شفتيها، وأعطت طرف الحوار لوالدة ماجدة قائلة:

– ما رأيك يا خالة بهذا الكلام؟ ارتبكت والدة ماجدة، وهي تتحدث؛ حيث قالت:

– ما تفوهتِ به يا بنيتي لا غبار عليه، ولكن كيف تكوني مُدرسة لعبد الرحمن وتتزوجينه؟! فاعذريني المجتمع لن يتركك تنعمين بحياتك، ومن قبل المجتمع فإن والدته لن ترضى بذلك. فنحن اعتدنا على أن الزوجِ يجب أن يكون أكبر من زوجته، فلا تنزعجي من صراحتي؛ فقديما قالوا: «يا بخت من بكاني، وبكى عليّ، ولا ضحكني، وضحك الناس عليّ».

ظهر الانزعاج على وجه رقية، والتي رأته ماجدة؛ فالتقطت طرف الحديث من أمها، وهي توجه حديثها لرقية، قائلة:

- المجتمع يتكلم عن الجميع، سواء كنت فتاة في مقتبل العمر، أو كنت تخطَّيت عمْرَ الخامسة والثلاثين مثلاً ولم تتزوجي، أو كنت مطلقةً، أو كنت أرملة؛ فلن يتركك. وللأسف من يجلدها بناتُ جلدتها؛ فإن رأيي سأقتنص جزءًا مما قالته أمي، وهو «أن كلامك عن عبد الرحمن لا غبار عليه»؛ لذا أكمل، وأن عليكِ إن كنتِ مقتنعةً به؛ فسيري على بركة الله.

نظر الثلاثة لفاطمة، التي تبسمت في وجه الجميع، وقالت:

- ما رأيكن لو أخذنا بجزءٍ من رأي الخالة أم ماجدة، وجزء من رأي ماجدة، وجزء من رأيي، ونجمعهم؛ فيكونوا رأيًا واحدًا أضعه أمامك يا رقية لتحكمي بعد ذلك؛ سأقول لك: إن كنتِ مقتنعة بعبد الرحمن تمامَ الاقتناع فبهَا ونعمت، وإن كنت لا تتحرجي من كونه أصغر منك، أو أنه طالَب عندك، حتى وإن كان في السنة النهائية من الكلية، والفارق بينكما صغير؛ فإن وجدتِ في نفسك جزءًا- ولو ضئيلًا- في التعالي عليه، أو شعورك الدائم بأنه الطالب الذي يحتاج لتوجيه؛ فهنا يأتي الرفض مكان القبول؛ لأنك لا تستطيعين التعايش معه بهذه الطريقة، ولا تنجحين في حُسن التبعُّل له.

أما إن كان شعورك غير ما أوضحت لك سالفًا؛ فسأقول لك: لا بد من أن نبدأ بأنفسنا بتغيير مفهوم المجتمع تجاه الزواج، وأقول إن كانوا قديمًا يتعاملون بالعمر؛ فما كان خالد بن الوليد سبعة عشر عامًا قائدًا للجيش؛ وما كانت السيدة خديجة-رضي الله عنها- خمسة وأربعون عامًا تقبع بقلب سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- خمسة وعشرين عامًا؛ والذي كان يسابق السيدة عائشة- رضي الله عنها- وفارق العمر بينهما حوالي أربعون عامًا، أو يزيد.

تنهدت رقية، وقالت:

– لقد اخترت بعدما أوضحتم لي أن كل ما سردته من صفات له، سيجعلني فخورة به كما نبهتني خالتي، وأن كلام المجتمع لا أعتدُّ به؛ فهو في كل الأحوال ينتقد بعضه البعض، وإنني يا فاطمة أشعر تجاه عبد الرحمن بأن عقله وخبراته تسبق عمره؛ لذا أشعر أنني أنا الطالب وهو الأستاذ.

قامت فاطمة من مجلسها، ومدت يدها لرقية؛ لتقوم من جلستها الأرضية، وهي تقول:

– إذًا، فمبارك عليك يا حبيبة قلبي.

ارتمت رقية بحضنها، وقالت:

– أشعر بأن أمي تهنئني يا فاطمة، فأنت نِعمَ الأم والصديقة والأخت، كم كنت أخشى من رأيك تجاه عبد الرحمن.

– لا بد أن نحتكم للعقل قبل القلب في أمور الزواج.

قالتها، وهي تطبع قُبلةً حارة على ناصيتها، واستطردت قائلة: كانت هذه هي الاستشارة؛ فأحيلك الآن للاستخارة.

قبّلتها ماجدة، وهنَّأتها. أقبلت رقية على والدة ماجدة التي مدَّت إليها يدها؛ لتقدم لها التهنئة، ثم تناولتها ماجدة بالأحضان والقبلات. وهنا، قطع ضحكاتهن صوتُ رنين هاتف فاطمة. كان المتصل هو رئيس تحرير المجلة.

* * *

-٢٨-

رسائـل

أعلم أني قد انشغلت عنكم الفترة السابقة؛ فقد كنت أمرُّ بظروف خاصة، ولكن من اليوم سأظل معكم يوميًّا، ويسعدني تلقي رسائلكم يوميًّا، إما على البريد الإليكتروني أو على رسائل صفحة التواصلِ الاجتماعي الخاصة بهذا الباب «بازل»، ولقد وجدت صندوقَ الرسائل الخاص بالبريد مليئًا بالعديد من الرسائل، فسوف أحاول اليوم الردَّ عليها، ولكن سأعرض المشكلة في سطر واحد؛ نظرًا لكثرة الرسائل.

واسمحوا لي أولًا، أن أعرض لكم هذه الرسالة اليومية، والتي طلب مني صاحبُها أنه لا يريد حلولًا بقدر ما يريد إخبار البنات عن شيء ما؛ فيا تُرى ما هو ذلك الشيء؟ هيا بنا لنرى!!

يقول صاحب الرسالة: «منذ أن كنت طالبًا بالفرقة الثالثة، رأيتها كالفراشة بين الزهور، وجدتُ فيها التواضع رغم أنها كانت الأولى على الدفعة، كانت بالفرقة الثانية، وكنت أذهب لأحد «السكاشن» في مادة كنت قد أخفقت فيها، وكانت هناك زميلة يظهر عليها سمتُ التَّدين، وأن ما شدني لها احترامها لذاتها، عندما طلبت منها أن أجلس بجوارها؛ لأنه لا يوجد مكان؛ رحّبت، وما إن جلستُ حتى قامت هي على الفور من موضعها، ووقفت طيلة المحاضرة، ولم ترضَ أن تعود للجلوس. وعندما فوجئت بذلك؛ قمت لأدعوها للجلوس، وسأقف أنا ولكنها رفضت بشدة، ولا أخفي عليك أنني تعلمت من هذا الموقف ألا أزاحم البنات، وخاصة هي؛ فقد علمتني درسًا لا أنساه.

ومن خلال مراقبتي لها، رأيت خطيب صديقتها التي لا تفارقها، وهو معنا بالكلية، ولكن بالفرقة الرابعة. أردت التودد إليه بأيّة طريقة؛ لأعرف عنها المزيد؛ فوجدته يذهب إلى مكتبة الكلية باستمرار؛ لاستعارة الكتب لمشروع تخرجه، فذهبت أنا أيضًا حتى واظبت على القراءة بسببه. ومن خلال الحديث، معه تعرفت على ظروفها، وقد تحدثت معه أن يخبر خطيبته أني أريد خِطبتها، إلا أنها كانت ترفض.

وكبرت في عيني أكثر؛ عندما علمت بسبب رفضها وهو رعايتها لأسرتها، وأن الرفض ليس بسببي أنا شخصيًّا.

لنا عودة... أخوكم يوسف.

* * *

نأتي لأصحاب الرسائل الذين ينتظرون عرضها، والطريق إلى حلها، وكما قلت سأنشرها مختصرة جدًّا.

رسالة الحب الأخضر: فتاة بالخامسة عشر، تشعر تجاه أحد أقاربها الطالب بالجامعة بالحب، ولكنها عندما حاولت أن تلمح له بذلك؛ جاءها ردٌّ بالإعراض على ذلك، فهي تريد ألا تتحرج أكثر من ذلك أمام نفسها.

الرد هو: من ترك شيئًا لله؛ عوَّضه الله بأفضل منه.

فإن الحب يسكن الأعماق، فلا يطفو إلا عندما يجد قاربًا يستحق أن ينجو به.

* * *

هذه الرسالة جاءت من الجنسين، وتكررت كثيرًا، وهي شكوى من زوج أو زوجة بإهمال أحد الطرفين له.

والرد هو: إن وجدت نفسك مقصرًا في أحد جوانب الحب؛ فاعلم أن العيب عندك وليس عند الطرف الآخر.

الحبُّ هو الاحتواءُ والود

الحبُّ هو التقبلُ والصدق

الحبُّ هو المشاركةُ والاهتمام

الحبُّ هو حُسنُ الاستماع

❋ ❋ ❋

أما هذه الرسالة، والتي جاءت على لسان سيدة أرملة، وأصبحت جدَّةً وتريد أن تعيش حياتها كما تريد هي، لا كما يريدها الأبناء.

فقلت لها: ابعثي برَدِّي هذا إلى كل أبنائك على هواتفهم النقالة.

بداخلي طفلة تريد أن تتدلل... اتركوها تتدلل،

طالما لا تؤثر عليكم.

بداخلي أمٌّ تريد أن تغمركم بحنانها... اتركوها تغمركم،

طالما لم تقيِّدكم بحنانها.

بداخلي فراغ أريد أن أملأه بما أريد... اتركوه يُملَأ باهتماماتي أنا وليس باهتماماتكم أنتم، طالما لم أحبِسْكم باهتماماتي.

وهذا زوج يشكو زوجته، أنه يعمل ليل نهار؛ ليوفر لها ولأولادهما كلَّ ما يريدونه وأكثر، ورغم ذلك يجد منهم عدم الاهتمام، رغم أنه لا يراهم أيامًا؛ نظرًا لكثرة الأعمال لديه.

عزيزي الزوج: الاهتمام ليس بكثرة المال؛ ولكن الاحتواء كنز لا يفنى.

❋ ❋ ❋

-٢٩-

وتمر السنون

زادت نسبة توزيع المجلة بعدما أدارت فاطمة المكتب الإعلامي بالقاهرة؛ بناءً على طلب من رئيس مجلس إدارة المؤسسة الإعلامية، والذي حضر مع رئيس تحرير المجلة إلى القاهرة بعد ستة أشهر من عودة فاطمة وماجدة من دبي للقاهرة؛ حيث تم افتتاح المكتب الإعلامي بعد تجهيزه، وتعيين الموظفين به، والذين كانت تختارهم فاطمة بعناية بمساعدة ماجدة، والتي كانت مديرة للعلاقات العامة بالمكتب.

* * *

بينما تجلس فاطمة أمام جهاز الحاسوب المحمول بمكتبها، وتتفقد الرسائل التي تأتي على صفحة التواصل الاجتماعي الخاصة بباب المشكلات «بازل»، لقد غبت كثيرًا أنا صاحب الرسائل الموجهة للبنات، والآن أعود إليكم، وها هي رسالتي:

في كل مرة، أعيد تكرار طلبي للزواج منها، كانت تبعث لي برسالة شفهية مع صديقتها، والتي كانت تقولها بالحرف لخطيبها: «إنها في غنًى عن الزواج». بعثت لهم أني سأنتظرها حتى الممات؛ فمثل هذه التي ترعى شعور أهلها، وتخاف عليهم جوهرةٌ حقُّها أن تصان وتُتوَّج ملكة؛ ولكن للأسف، ومع إصرار أمي أن أتزوج وإلحاحها عليّ أنها تريد أن ترى أحفادها مني؛ لأني كنت وحيدَها، ومرضُها بسبب هذا الموضوع تزوجت مَن اختارتها لي، ولكنني حاولت مرةً أخرى قبل أن أتزوج، وسألت على محبوبتي، فوجدتها على موقفها نفسه، فتزوجت لسنتين كنا نتشاجر فيهما دائما أنا وزوجتي، وخاصة على موضوع الإنجاب؛ حيث اكتشفنا بالنهاية أنني لا أستطيع

الإنجاب، فطلبت مني الطلاق، وكم كنت سعيدًا لهذه النتيجة رغم أنه من المفترض أن أكون حزينًا، ولكنني فرحت؛ فلن تكلمني أمي مرةً أخرى عن الزواج وسأنتظر محبوبتي حتى ترضى بالزواج مني، ولكن للأسف انقطعت عني أخبارها وخاصة بعد أن تزوجت صديقتها، وسافرت إلى بلد عربي. وهذا آخرُ ما عرفته عندما ذهبت لبيت خطيبها لأسأل عنه.

أعلم أن مشكلتي ليس لها حلٌّ عندك يا سيدتي، ولكنني كنت أريد- فقط- أن أبوح بشيء؛ لعل البنات تستفدن منه، فالذي جعلني أنتظر محبوبتي إلى الآن هي أخلاقها وإيثارها وبرُّها لأهلها، وحشمتها، وليس ما نشاهده الآن من جرأة في التعامل، وملابس ما أنزل الله بها من سلطان، وأنانية مُفْرطة.

انتظروا مني رسائل أخرى قريبًا.. أخوكم يوسف.

***

أعلن حاسوبها عن وصول رسالة جديدة تحمل اسم «جنة الفردوس»، شرعت في قراءتها، ورحبت بصاحبتها. وبعد الترحيب، قالت لها جنة الفردوس: هل لي أن أناديك بـ(يا خالة)؛ فإنني أحببت كتاباتك جدًّا، وأحفظ كلَّ أشعارك، وأثق بتوجيهاتك للقرَّاء؛ لذا أقدمت على هذه الخطوة؛ لأجد عندك الحل، ولكن لا ترسلي لي خاطرة، بل أريد أن أحادثك.. إما عن طريق الهاتف أو الدردشة.

أثار ذلك فضول فاطمة، والتي- على الفور- فتحت معها حوارًا عبر الدردشة.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أهلًا وسهلًا يا جنة.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا يا خالة أم أبيها.
- أهلًا حبيبتي، تفضلي احكي لي ما تشائين؛ فأنا مثل والدتك.

- والدتي، حضرتك اختصرتِ الكلام، سأتحدث عن أمي بالفعل؛ فأنا بالسنة النهائية بكلية الطب، وأقيم بالمدينة الجامعية بالقاهرة، وأخواتي بمراحل الكلية المختلفة، أختي الصغرى أصابها شلل نتيجة سقوطها من الطابق الأول من شرفة منزلنا؛ حيث كنا بالعيد الأضحى، وهرب الخروف من سطح المنزل، وكان باب الشقة مفتوحًا؛ فخافت أختي منه، وهو يجري بالشقة، فجرت على الشرفة وهو يجري وراءها، حتى اخْتل توازنها من الكرسي، الذي كانت تقف عليه.

الكل اتهم الخروف، لكنني اتهمت شيئًا آخر.. اتهمت لعنةً طالما حذرت أُمي منها: لعنة الميراث، وأكل مال اليتيم. كنت دائمًا وأبدًا أحذر أمي منها أنها ستصيبنا في يوم من الأيام، ولكنها لم ترضخ لكلامي، وكان الكِبْر حليفها حتى أصيبت بالمرض الخبيث، وأنفقت العديدَ والعديد من أموالها. كانت تتجه لبيع أراض تخصنا لاستكمال علاجها، لكن خالي وقف لها بالمرصاد؛ لأنه كانً يدير كلَّ أراضينا. وبالتالي، كل العوائد تذهب له، ويعطينا الفُتات حتى تُوفِّيت وهي بانتظار المساعدة من أحد أصدقاء أبي- رحمة لله عليه-؛ حيث كان من المنتظر أن يأخذ سُلفةً من عمله، ولكن القدر لم يمهله؛ فماتت قبل استلام سلفته بيوم واحد.

ماتت قبل أن تسد دَينًا كبيرًا عليها، وشاركت في ظلم أكبر.

- حبيبتي، لا تتحدثي عنها هكذا؛ فهي في ذمة الله الآن، لا تدرين احتمالَ أن تكون تابت، وأنابت قبل وفاتها.

- لا تعلمين بحالي عندما أرى أختي الصغيرة، وقد أصبح جسدُها كهلًا، وعيناها زائغة، تموت في اليوم مائة مرة من كثرة عيون من حولها الذين يتغامزون ويتلامزون. والأكثر تنكيدًا هو أن من في مقام خالنا

لا يريد أن يعطينا حقوقنا حتى نستطيع أن نعالجها أو تسافر بالخارج، فأملاكنا قادرة على ذلك، ولكننا نعيش عيشة الصعاليك.

- أنا هنا بالقاهرة وأكره أن أذهب لبلدتي، لكن لا بد حتى أرى أخواتي، ولكن الفترة التي أمكثها هناك تتراوح بين اليومين أو الثلاثة، أذوق فيها مَرارًا هادرًا من زوجة خالي الثانية، بعد وفاة زوجته الأولى.

فلا أعرف كيف السبيل للخروج مما أنا فيه الآن، أريد أن أقيم أنا وأخواتي بالقاهرة، ونهرب من هذا الجحيم، وسوف أعمل بأي عمل شريف؛ لأصرف عليهم. ولكن هل من طريقة تجعلني أستطيع أن أحضر أخواتي هنا دون أن تمنعهم زوجة خالي أو خالي.

- حبيبتي، هل من الممكن أن نتقابل؟ فأنا في انتظارك هنا بالمكتب في أي وقت تحددينه.

- عفوًا يا خالة؛ فأنا لا أعرف بالقاهرة سوى الجامعة والمدينة الجامعية.

- إذًا، فسآتي أنا لك. أعطني اسمك وبياناتك حتى أعطيها لأمن المدينة عندما أطلب زيارتك، وسوف أساعدك بإذن الله أن تحضري أخواتك هنا، وأعينك على تدبير مسكن لك.

- إليك بياناتي: الاسم/ سميرة سمير الأسيوطي.

- عفوًا حبيبتي، هذا اسمك؟، وهذه بلدتك؟

- نعم يا خالة.

كادت فاطمة أن يغشى عليها، وهي تتذكر سميرة في عزاء سمير، عندما أتت لفاطمة بكرسي تجلس عليه؛ حتى لا تسقط على الأرض.

وها هي فاطمة تساعد سميرة وأخواتها، ألا يسقطوا في بئر الذل والمهانة من خالهم، والذي علمت أنه المعلم صبحي.

* * *

-٣٠-

دُرةُ تاجـي

بينما تقف فاطمة بالمطبخ تحضر الطعام لكريم، الذي ينتظره ليأخذه ويتناوله مع جاره وصاحبه عمر بالشقة المقابلة لشقتهم، حيث إن والديه يؤديان العمرة.

– أمي، لا تنسي تحضير شطائر الكيك؛ فهي أهم من البطاطس المقرمشة هذه.

–أعلم الجدول الأسبوعي يا أستاذ كريم، شطائر الكيك مع كوب النسكافيه لأستاذ صدِّيق.

– هانت يا أمي، بقي شهر على امتحان الثانوية العامة، وأنت تعلمين أن الخالة أم عمر لا تجيد صنعها، وأنا أحب أن أقدِّم للأستاذ صدِّيق أي شيء يحبه؛ فإني أحبه كثيرًا. إنه يعاملنا كأبنائه، وغير ذلك يشَرح لنا اللغة العربية بطريقة جعلتني أحب أن ألتحق بكلية دار العلوم مثله ومثلك.

– إذًا، فستكون كأمك يا كريم درعميًّا!؟

– ما هذا لا أفهم؟

– يا بني، كل من يلتحق بكلية دار العلوم يلقب بالدرعمي.

يقطع حديثهما دقاتٌ على باب الشقة، ومناداة من عمر؛ ليلحق به لأن أستاذ صِدِّيق قد قدِم إلى المنزل.

– حاضر يا عمر، اذهب أنت وسألحق بك.

قالها وهو يقترب من باب الشقة، ثم عاد لأمه وقال: سأعود مجددًا لأخذ الكيك وأقداح النسكافيه؛ واستكملي يا أمي تحمير البطاطس فسوف نأكلها بعد الدرس.

– حاضر يا كيمو. أضع الكيك بفرن البوتوجاز، وأستكمل البطاطس المقلية، وأصلي العصر، ثم أصنع لكم النسكافيه.

– السلام عليكم يا أمي، في رعاية الله.

قالها وهو بطريقه لباب الشقة.

وبينما تضع فاطمة صينية الكيك بالفرن، دقَّ هاتفها، جرت عليه وتحدثت مع المتصل كثيرًا، ثم قامت لتصلي العصر.

***

– أستاذ صدِّيق، نود أن نكون على اتصال مع حضرتك بالأجازة، فهل نظمت لَنا برنامجًا للأنشطة بالأجازة؟

قالها كريم، وهو يعطيه كشكول الواجبات المنزلية ليصححه له.

– عظيم يا كريم، ما هذا الإبداع في البلاغة؟ وكأنك تشرب اللغة شربًا.

– يا أستاذ صِدِّيق، لا بد أن يكون كذلك؛ فالخالة أم كريم كاتبة مشهورة.

– عظيم حقًّا ! ما اسمها إذًا؟

– أم أبيها. قالها عمر.

– انتبه الأستاذ صِدِّيق، وسأل عمر: أحقًّا هي التي تكتب بمجلة «بوح الأدب»؟

– نعم، فهي مدير تحرير المجلة الآن.

– ما شاء الله.

– إنني أقرأ لها جيدًا، بل وأتابع رسائلها أيضًا حيث إنني.. ولم يكمل حديثه حيث زكمت أنوفهم برائحة دخان تأتي من ناحية باب الشقة.

جرى «كريم» على الباب، قائلًا:

– أمي، أمي.

لحق به الأستاذ صِدِّيق، وتبعه عمر. فتح كريم الباب، بينما هَمَّ عمر بالدخول، ومنعه الأستاذ صديق قائلًا:

– لا تدخل؛ ربما تكون أمه بملابس البيت، ثم علا صراخ كريم، قائلًا: أغيثوني.

– استرها يا كريم.

قالها صِدِّيق، وهو يصدح عاليًا بصوته.

– أمي بالإسدال.

قفز صِدِّيق قفزةً جعلته داخل المطبخ، حيث دخان كثيف، ونار عالية، كبَّر كثيرًا وأخرج من جيبه مفاتيح سيارته، وأعطاها لعمر قائلا:

– مطفأة الحريق بالسيارة هيا أسرع. قالها وهو يحمل فاطمة إلى شقة عمر، وقد وضع «كريم» طرحة إسدالها على وجهها؛ حتى لا تستنشق دخانًا أكثر.

عاد الأستاذ صِدِّيق لشقة «كريم» الذي كان يطفئ مع عمر الحريق، وقد تجمعَ عدد من الجيران، وجاء أحدهم بمطفأة أخرى حتى أطفأت النيران.

جرى «كريم» على أمه، التي فقدت الوعي، ثم جرى على صِدِّيق، قائلًا– وهو مذعور– ينتفض جسده:

– أغثني يا أستاذ صِدِّيق، أمي فاقدة للوعي.

جرى عليها، وأمر «كريم» بحملها، وما إن جاء يحملها، حتى وقعت من بين ذراعيه المنتفضة، فحملها صِدِّيق على الفور بين ذراعيه، وهبط مُسرعًا على الدرج وأدخلها بالكَرسي الخلفي للسيارة، بينما جلس «كريم» بجوارها، وجلس عمر بالكرسي الأمامي بجوار صِدِّيق.

استلمها الأطباء والممرضات بقسم الطوارئ، بينما احتضن صِدِّيق كريمًا الذي كان ينظر هنا وهناك كالتائه، لا يعرف أين يذهب؟ ربت على ظهره، وهو يقول:

– ومتى يظهر الرجال إلا في هذه المواقف يا كريم؟ اصلب ظهرك يا ولدي، واشدد جزعك، ولا تحْنِ رأسك؛ فوالدتك– حفظها الله– ستكون بخير. هدِّئ من روعك حَتى تجدك بجوارها رجلًا يُعتد به؛ فأنت أبٌ لأمك.

بدأ كريم يهدأ شيئًا فشيئًا، ثم أخذ شهيقًا عميقًا، وأخرج زفيره دفعةً واحدةً، وهكذا عدة مرات؛ حتى استرد فرائصه التي كانت ترتعد، ثم أشار له عمر بأن يذهب ليغسل وجهه بدورة المياه.

– منذ متى تُوفِّي والد كريم يا عمر؟ قالها الأستاذ صِدِّيق.

– لا أعرف، ولكن «كريم» سكن بجوارنا، وكان عمره تقريبًا سبع سنوات. وكان والده مُتوفِّيًا.

ربت على ظهره، وهو يقول:

– ابقَ بجوار صديقك يا ولدي، ولا تتركه، وحاول أن تستفيد من خبرة هذا اليوم، لا تجعله يمر عليك مرور الكرام، فمن كان في مثل عمركم؛ كان قائدًا للجيوش.

لاح وجه «كريم» من بعيد، فأشار إليه صِدِّيق، قائلًا:

– هيا يا بطل، اسأل واطمئن على والدتك، وسننتظرك أنا وعمر هنا.

– خرج «كريم» من الحجرة التي كانت تقبع بها أمه بعد ساعة تقريبًا، وهو يسند أمه، وقد كان صِدِّيق وعمر يجلسان على المقاعد الجانبية بردهة المشفى.

وما إن رآها صِدِّيق، حتى وقف متباطئًا، فاغرًا فاه؛ فقد رأى ربيع عينيها يتربع على شَتاء قلبه؛ ولسان حاله يقول: أحقًّا تخبئ لي الأقدار ما كنت أنتظره طيلة عمري؛ لم يجنِ الزمن على قسمات وجهها، فما زالت بملامحها الطفولية.

لم تنظر له إلا قليلًا؛ لتشكره على ما قدَّم إليها من معروف، ولم تحدد ملامحه بعد.

قضى الزمان على غرته، وأبقى له على جانبي رأسه السواد المرصع ببعض المشيب، واكتمل المشهد بتلك اللحية الخفيفة التي تلتقي مع أذرع نظارته الطبية المرتكزة على شحمتي الأذن المخبأة وراء الوجنتين العاليتين، التي تعلوهما تلك العينان الغائرتان المكحلتان، فقد تغيّر وجهه كثيرًا مع بعض التغيرات بالجسم السمين العريض المنكبين.

انتبهَ لكريم الذي تركها، ليكمل بيانات المشفى، ثم قال أستاذ صِدِّيق:

- هيا لنخرجِ من المشفى.

نظر إليه قائلًا، وقد ارتبك صوته:

- نعم، هيا.

استبقهم للسيارة، ثم عاد يحمل بيده كيسًا بلاستيكيًّا، وأعطاه لكريم قائلًا:

- هيا، ألبِس أمك هذا الحذاء؛ فهو معي دائمًا لاستعماله أثناء الوضوء.

كان دائم الشرود أثناء قيادته للسيارة، يحدثه قلبه:

- ماذا تخبئ لي أيها القدر؟ أحقًّا الفرح والسرور، أم البعاد والاشتياق؟!؛ فهل ستوافق هي على عرضي اليوم يا من كانت ترفضه بالأمس؟!

فهل يلتقي الاسمان كما التقى اللقبان؟ ثم تنهد بعمق قائلًا: آآآه. لم يشعر وهو يقولها إلا عندما سأله عمر:

- ما بك يا أستاذ صديق؟
- لا شيء يا عمر، بارك الله فيك.
- لقد أزعجناك كثيرًا اليوم يا أستاذ صديق.
- إطلاقًا يا كريم؛ فأنتم أولادي.

***

قل لي بربك من تكون؟
يا من سكنتَ بخافقي
منذ التقينا من سنين
حتى منامي زُرته
فتوسَّد السهد الجفون
يا من ملكتَ جوارحي
وملكتَ قلبي والعيون
يا وجدَ أيامي التي
طابت بطيفك واللحون
هامت مَواجيدي بكم
وشدا فؤادي بالحنين
وسكرتُ من وهج التشظي
من تباريح الظنون
وسهرتُ أيامي على
أمل اللقا يومًا يكون
هذي حروفي سيدي

تشدو بلحن الهائمين
ويسوقني للوصل شوق
بات يُوجِعه الأنين
فأقول كَيف متى وأين
تكون لقيا العاشقين؟
إني عشقتك سيدي
عشق السكارى الشاردين
لا زلت أسأل سيدي
قل لي بربك من تكون؟

كلمات شعرية سطّرتها فاطمة، وهي جالسة بشرفتها، شاردة بفكرها، مختلية بنفسها بعد زيارة الأستاذ صِدِّيق لها بالمنزل بحضور ابنها كريم وأختها زينب وزوجها. وبعد انصراف الجميع، طلبت من «كريم» أن يتركها لخلوتها بالشرفة وحدها.

لقد فتح الشوق صندوقَ ذكريات وحنين، لطالما أغلقته بأقفال الرفض تارة وأقفال النسيان تارة أخرى، وأقفال اللاممكن.

حتى جاء من أعطاها المفتاح لتهبَّ عليها نسائم الشوق والحنين والذكريات والحب.

* * *

– حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي، عُمرة مقبولة إن شاء الله.

– سلمك الله يا حبيبي، عمرة مقبولة يا يُوسُف.

– أصبتِ يا فاطمة، عندما طلبتِ مني أن نبدأ حياتنا الزوجية بالعمرة.

– لم أكن أعلم عنكَ الكثير عن حياتك الاجتماعية، لذا لم يلفت انتباهي الرسائل التي كنت ترسلها للمجلة، وخاصة أنك لم توقعها

باسمك كاملًا يوسف صِدِّيق، ولكن ساورني الشك بأن تكون أنت، ولكنني كنت أطرد من عَقلي هذا الظن.

فقد كنت أحبك من خلال ما قالته عنك «ماجدة» نقلًا عن خطيبها آنذاك، وكنت أحترم فيك أنك لم تحادثني يومًا، أو تعترضني؛ فزاد ذلك احترامي لك.

– كذلك لو كنت أعلم أنك فاطمة، لما أرسلت لك تلك الرسائل حتى أرفع عنك الخجل.

قالها، وهو يضمها تحت إبطه كالعصفور، الذي يبسطِ جناحه لعصفورته؛ لتستظل بظلال الأمان والمودة؛ واستطرد قائلًا، وهو ينظر لمقلتيها، يُسمعها كلمات من أغنية أم كلثوم:

هذه الدنيا كتاب أنتِ فيه الفكر

هذه الدنيا ليال أنتِ فيها العمر

هذه الدنيا عيونٌ أنَتِ فيها البصر

هذه الدنيا سماء أنتِ فيها القمر

اشرأبت وجنتاها، وافترَّت عن ابتسامة وضّاءة، ونظرت بخارج نافذة السيارة الأجرة، التي يستقلانها هي ويوسف بعد عودتهما من رحلة العمرة، وأشارت لمن بالسيارة المجاورة لها، قائلة:

– حمدًا لله على سلامتكم يا أولاد. عمرة مقبولة إن شاء الله.

– عمرة مقبولة يا أمي.

قالها «كريم» الجالس بجوار سائق السيارة الأجرة، وهو يستند رأسه على كرسيه بعد رحلة العودة من العمرة.

ثم ردت سميرة:

– يا خالة فاطمة، فنحن بنات، وكريم واحد فقط أولاد؛ فلمَ التعميم؟

ثم اختفت ضحكاتهم بعد أن سبقت سيارتهم سيارة فاطمة ويوسف، والتي ما لبثت أن غيّرت اتجاهها، فبدلًا من أن تتجه لمنزلهما بحي مدينة نصر الذي يسكنان فيه ومعهما كريم وأخواته البنات- بعدما نجحت فاطمة ويوسف من انتزاعهن من بين أنياب المعلم صبحي، ونجحت سميرة في إحضار هدية لفاطمة وكريم وهي عقود تركة والدهم.

اتجه السائق إلى منزل والد فاطمة بحي الجمالية؛ وأثناء الطريق كانت فاطمة تسأل يوسف أين نحن ذاهبون؛ يرد عليها قائلًا:

- ستعرفين بعد قليل.

وعلى مشارف الحي، أوقف يوسف السيارة، وقال لها:

- هيا تفضلي يا صغيرتي، سنترجّل حتى منزلكم.

- لِمَ يا يوسف؟

- فزينب أختك تنتظرك بالمنزل.

- هكذا أترجل نهارًا بهذه العباءة البيضاء المطرزة، والتي صَمّمت أنت أن أرتديها، إني أتحرج من السير بها أمام المارة، وسوف تتسخ من الأرض أيضًا.

- لا يهمك يا مليكتي، أبتاع لك ألف عباءة، ولكن الآن هيا.

وبسط يده اليُمنى لها، ويده اليسرى وراء ظهره، وانحنى جزعه للأمام قليلًا، وقال: - مولاتي تفضلي.

ابتسمت قائلة:

- أين تأخذني يا أميري؟

وبعد اعتدالها بالوقوف، وقد أخذ ذراعها ليتأبط ذراعه، قال:

- هيا للمنزل.

وبعد عدة خطوات، قالت:

- يُوسُف، أشعر بالإحراج كيف رضختُ لكلامك؟

يرفع رأسه وأنفه، وينظر لها بطرف عينه، وهو يقول:

- وهل بإرادتك ألا ترضخي؟

وهنا، توقفت فاطمة عن المسير حينما سمعت دفوفًا وطبولًا تنبئ عن وجود زفة بالمكان، وزغاريد الجيران من الشرفات، كان قلبها يرتجف فرحًا وخجلًا كابنة العشرين، وأمسكت بمرفق يوسف أكثر وأكثر، والتصقت بذراعه كأنها طفلة تختبئ من الناس بكتف أبيها، وبينما ذلك أحاطت بها سميرة وأخواتها وكريم وعمر ووالدته وعند منزل والدها كانت تتراصّ أخواتها وأولادهن، فها هي زينب وزوجها وتوأماها هديل وهدير، وهنالك رقية وزوجها عبد الرحمن وأولادهما مازن وروان، واختفت عن المشهد صديقة دربها ماجدة التي تزوجها رئيس التحرير، وسافرت لدبي ومعها أمها بعدما تأكدت أن طليقها عاد إلى مصر بعد أن باع كل ما يملك لسداد ديونه.

وأثناء ذلك، أقبلت أخواتها؛ ليطبعن قُبلات حارة على وجنتيها، بينما اختفى يوسف قليلًا؛ ليعود وقد خبأ شيئًا وراء ظهره، ثم قال لها:

- أغمضي عينك يا مولاتي.

- لِمَ يا يوسف؟ فوجئت بصياح من الجميع: أغمضي يا فاطمة.

- لقد كنت أنتظرك سنين طويلة، حتى أتوجُكِ يا مليكتي.

قالها، وهو يضع تاجًا ذهبيًّا على رأسها، ويطبَع قُبلة حارة على جبينها.

أمسكت بكفه، وقبَّلته، وقالت: وأنت دُرَّةُ تاجي.

***

تمت بحمد الله